القسم الاول

صفات النفس

الباب الاول فى تعريف النفس

ومايتعلق به

النفس والعقل والروح والقلب الفاظ مختلفة ولكنها تارة تكون متحدة المعنى فترد كلها على شيء واحد ومعنى واحد وهو — سر الهى لايعلم حقيقته الا الله تعالى — متعلق بالانسان تعلقاً معنويا ليدبره فى أموره ويسلك به الطريق القويم والصراط المستقيم . والى ذلك المعنى يشير قول الله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا) فذلك السر الالهى يسمى نفسا وعقلا وروحا وقلبا . وتارة تكون هذه الالفاظ مختلفة المعانى فيطلق كل لفظ منها على معنى يغاير الآخر فالنفس تطلق على مجموع الشهوة والغضب وهذه هى النفس الشريرة عند الصوفية. والعقل يطلق على العلوم والمعارف . والروح تطلق على القوة المادية التى بها الحياة والحس والحركة وهذه يتعلق ببحثها غرض الاطباء . والقلب يطلق على قطعة اللحم الصنوبرية الشكل الموجودة فى الجهة اليسرى من الحيوان والانسان

ومن هذا يتضح لك أن لكل لفظ من هذه الالفاظ معنيين فالنفس تطلق على ذلك السر الالهى الذى لايعلم حقيقته الا الله وتطلق على مجموع الشهوة والغضب . والعقل يطلق على ذلك السر الالهى وعلى العلوم والمعارف. والقلب يطلق على ذلك السر ويطلق على قطعة اللحم الصنوبرية الشكل . والروح تطلق على ذلك السر وتطلق على القوة المادية التى بها الحياة والحس والحركة . فاذا سمعت قول الله تعالى (وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء) أدركت أن معنى النفس هنا هو مجموع الشهوة والغضب لانهما هما اللذان يأمران المرء بالسوء ويسوقانه الى العصيان . واذا سمعت قوله تعالى (ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية) كان معنى النفس هنا ذلك السر الالهى الذى خلقه الله فى الانسان ليهديه الى سواء الصراط . واذا سمعت قول الله تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فهمت منه أن معنى القلب فى الآية هو ذلك السر الالهى لاقطعة اللحم الصنوبرية الشكل وهكذا كلما ذكر القلب فى كتاب الله أو سنة رسوله فانه يراد منه ذلك المعنى الا أن يعبر بقطعة اللحم ويراد منها السر المتعلق بها

وظيفة العقل والبدن

اذا علمت ذلك تبين لك أن الانسان ليس هو مجرد الجسم المركب من الدم واللحم والعظام والعناصر المختلفة المادّية لأن ذلك قدر مشترك بينه وبين سائر الحيوان وانما الانسان هو مجموع امرين أحدهما ذلك الجسم المادى والآخر معنى زائد عليه يمتاز به الانسان عن الحيوان وذلك المعنى هو السر الالهى الذى تقدّم لك الكلام فيه وقد تضاربت الأفهام فى تصويره واختلف الناس فى بيان حقيقته ولكنهم حتى الآن لم يهتدوا الى بيان مستند الى دليل مادى يدل على حقيقة ذلك السر الذى به الادراك والتفكر على ان القدر الذى تستريح له النفس من ذلك هو أنه امر مجرد عن المادة متعلق بذلك الجسم المادى تعلقا معنويا. والمجرد عن المادة يعجز العقل عن ادراك حقيقته وماهيته وان عرفه بخواصه ومزاياه. على أن مميزات الانسان كلها فى الحقيقة مبنية على وجود ذلك السر الذى به الادراك والتفكير فبالعقل يكون الانسان محلا للمدح والذم وأهلا للمطالبة بالواجبات الدينية والتكاليف الشرعية وغير ذلك من شؤون الحياة الدنيوية والأخروية لهذا جعل الله له سلطة كاملة على البدن فلا يعصى له أمراً ولا يخالف له نهياً فان قال لليد تحركى فعلت وان أمر الرّجل بالمشى أجابت واذا قال للعين اغمضى أطاعت. وإذا قال للسان تكلم فعل وهكذا سائر أعضاء البدن فانها جنود مسخرة للعقل يتصرف فيها كملك مطاع لا يرد أمره. على أن له أعوانا تساعده على تدبير مملكة الجسم على الوجه الأكمل حتى يقطع مراحل الحياة آمنا من الخطر. فان أحسن تدبير مملكته وسلك السبيل التى سنها الله له فقد نجا. وإن أساء التدبير وحاد عن جادة الصواب واستسلم لعوامل الفساد كان من الهالكين. من ذلك تعلم أن وظيفة العقل هى الهيمنة على سائر أعضاء الجسم وان وظيفة الجسم انما هى الطاعة العمياء للعقل فى تصرفه

أعوان العقل

تنقسم اعوان العقل إلى قسمين قسم يشترك فيه الانسان والحيوان. وقسم يختص به الانسان فأما الأول فهو ثلاثة أمور: الاول قوة الحواس كالبصر والشم والذوق واللمس والسمع. ويتبع هذه الحواس الخمس قوى مخلوقة فى الدماغ كالخيال والحافظة فان الانسان بعد رؤية الشىء يغمض عينيه فيدرك صورته فى نفسه وهو الخيال. ثم تبقى هذه الصورة معه بسبب القوى الحافظة ونحو ذلك مما لا تتعلق بشرحه غرضنا الآن. ووظيفة هذه الحواس ادراك الأشياء وتعرفها

الثانى قوة الشهوة والغضب . وتلك القوة من أخطر القوى على العقل لأنها تنازعه دائما مملكته وتريد أن تتغلب عليها دونه فاذا لم يستعملها فيما خلقت لاجله ضاع ملكه وخسر نفوذه وعرض نفسه للشقاء فى الدنيا والآخرة . ووظيفة هذه القوة التى خلقت من أجلها هى الحث على جلب النافع ودفع الضار فالذى يحث على جلب النافع الى البدن هى الشهوة . والذى يحث على دفع الضار عنه هو الغضب

فالشهوة تدفع أعضاء البدن إلى طاعة العقل فيما يأمر به من العمل للحصول على مايرفع الألم ويحصل اللذة مهما كان العمل صعبا شاقا . وكذلك الغضب يهتاج بالاعتداء على العرض والمال والنفس والدين فيدفع الأعضاء للبطش بالمعتدى ومقاومة عدوانه طوعا لأمر العقل ولولا ذلك لهلك الانسان كما سيأتى فى باب الغضب . تلك هى وظيفة قوة الشهوة والغضب الحقيقية وذلك هو حدها الذى يطلبه الله من الانسان فاذا سمح العقل لها بالطغيان ومجاوزة الحد الذى رسمه الله لها فقد عرض نفسه للهلاك والردى واصبح الى الحيوان اقرب منه إلى الانسان فان تغلب عليه الغضب كان شبيها بالحيوان المفترس . وان تغلبت عليه شهوة البطن والفرج كان شبيها بالبهائم الأخرى التى لاهم لها إلا ملء بطونها وقضاء شهواتها من ذلك تنشأ الجرائم وترتكب الموبقات كما سيأتى مفصلا فاذا فقد الانسان حمية الغضب فلم يتأثر للاعتداء على دينه أو عرضه أو ماله كان جبانا واذا فقد الشهوة كان جمادا والكمال فى ان يستعملهما فيما خلقا لأجله وذلك هو الخير والسعادة فى الدنيا والآخرة .

الثالث هو القدرة وهى القوة المنبثة فى سائر الاعضاء لاسيما العضلات منها والأوتار ووظيفتها تحريك العضلات الى تحصيل مايراد منها تلك هى أعوان العقل المشتركة بين الانسان والحيوان فان الحيوان لديه قوة الحواس وقوة الشهوة والغضب والقدرة . فالشاة ترى الذئب بعينها فتعلم عداوته بقلبها فتفر منه كما يرى الانسان عدوه فيهتاج غضبه فيدفع عن نفسه

وأما القسم الثانى وهو مايختص به الانسان دون الحيوان فهو العلم بالأمور الدنيوية والأخروية والحقائق العقلية والارادة فان ذلك من خصائص الانسان وحده كما سيأتى فان الحيوان مهما أتيح له من التعلم لايستطيع ان يدرك المعانى الكلية الدقيقة التى يدركها العقل الانسانى بل كل مدركات الحيوان ترجع الى الحواس الظاهرة والباطنة فقط فلا يستطيع ان يقيس ماغاب عنه على ماحضر لديه . ولا يمكنه أن يستنتج من المقدمات النظرية شيئا بخلاف العقل الانسانى. أما وظيفة العلوم والمعارف الدنيوية والأخروية والحقائق العقلية فهى مساعدة العقل على سلوك سبيل السعادة والبعد عن طرق الشقاء فمن تعلم ماله وما عليه فى حياته وأدرك مايضره وما ينفعه فى دنياه وآخرته وعرف حقائق الأمور فوقف عند حدها فقد حصل على أكبر عون للعقل على كسر الشهوة والغضب فان الزانى مثلا اذا أدرك سوء مغبة الزنا من ضياع نسله وهتك عرض غيره وما يتبع ذلك من ضياع للمال وتعرض للأمراض القاتلة ومن وراء ذلك عذاب الله وغضبه اطاع العقل فى الكف عن الزنا وكذلك المريض الذى يعلم أن الأكل يؤذيه وقد يذهب بحياته فانه يطيع العقل فى الامتناع عن الأكل. وهكذا. وكذلك الغضب فانه إذا اهتاج وقف العلم أمامه فألزم صاحبه أن لايخرج عن الحد الذى سنه له الدين وتطلبته منه البيئة التى يعيش فيها فلا يخرجه عن

طوره ولا يدفعه الى اتيان مايخل بمروءته وشرفه . ولا يسوقه الى ظلم أحد من خلق الله . ولا يذهب به الى مجاراة الاشرار والفجار . ولا يفضى به الى الحقد . والحسد . والغيبة . والنميمة وغير ذلك من الأخلاق الفاسدة التى تترتب على طغيان الغضب وخروجه عن الحد الذى خلقه الله من أجله كما ستعلمه فى مباحث الغضب فالعلم والتفكير خير سلاح للعقل يحارب بهما الشهوة والغضب ويوقفهما عند حدهما فلا يخرجان عن وظيفتهما التى خلقا من أجلها وهى المعونة على تحصيل الحلال الطيب من اللذات . والحث على الدفاع عن النفس . والعرض . والمال . والدين . فاذا استطاع العقل أن يفعل ذلك فقد سلمت مملكته من الأخطار وقطع مراحل الحياة آمنا مطمئنا . وعاش عيشة راضية مرضية . لايكون لأحد عليه تبعة ولا يخاف بعد ذلك عقابا فان الله تعالى يكون راضيا عنه ومن يرض عنه ربه فلن يشقى أبداً

الاصول التى تتفرع عليها صفات النفس

قد علمت أن الانسان مركب من جسم مادى وروح مجردة عن المادة وهو بذلك التركيب البديع قد اجتمعت فيه الصفات النباتية . والحيوانية . والربانية . والملكية . والشيطانية . فهو من حيث يتغذى ويتناسل نبات . ومن حيث الحس المخصوص والحركة بالاختيار حيوان — ومن لوازم الحيوانية الشهوة والغضب — ومن حيث العلم والمعرفة بحقائق الاشياء ملك وربانى . ومن حيث اجتماع الشهوة والغضب مع التميز شيطان لأنه يستعين على قضاء شهوته بالحيلة والمكر كالشيطان . ومن هنا يتبين أن أصول صفات النفس اربعة السبعية . والبهيمية . والشيطانية . والربانية فاذا غلب عليه غضبه التحق بالسباع والحيوانات المفترسة فأصبح شرسا يفعل كما تفعل السباع من العداوة والبغضاء والتعدى على خلق الله بالسب والضرب والايذاء وغير ذلك . واذا غلبت عليه شهوته التحق بالبهائم التى لاهم لها الا ملء بطونها وقضاء شهواتها فأصبح شرهاً فى مأكله ومشربه شبقا تدفعه شهوة الفرج الى ارتكاب الفواحش . واذا غلبت عليه صفة الربانية فانه ينبعث إلى معرفة حقائق الأشياء والوقوف على المعلومات الدينية والدنيوية وتلك هى خاصية الانسان التى امتاز بها على الحيوان وشابه بها الملائكة المقربين . فالعلم هو أجل معنى يوجد فى الانسان وأحسن معين للعقل على قهر الشهوة والغضب كما سبق ولولا العلم ماخلق الانسان . ألا ترى ان الله سبحانه وتعالى قال للملائكة (إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) فلما علم سبحانه آدم اسماء الكائنات ومسمياتها وسأل الملائكة عنها فعجزوا عن الاجابة وسأل آدم فأجاب أدرك الملائكة أن النوع الانسانى يمتاز بصفة العلم وأن من كان هذا شأنه فهو جدير بالوجود والبقاء مهما ترتب على وجوده من المضار لان منفعة العلم وحدها ترجح على كل مايحيط بها وأفضل العلم ماكان موصلا لسعادة الدنيا والآخرة وما كان سببا فى ضبط الشهوة والغضب وعونا للعقل على اتباع سبيل الدين وسلوك طريق المهتدين

على أن صفة الربانية الموجودة فى الانسان لها طغيان أيضا فقد يعدو الانسان طوره وتحمله تلك الصفة على ادعاء ماهو خاص بالله وحده فيدعى الاحاطة بجميع المعلومات ويغضب اذا نسب اليه الجهل فى أمر من الأمور مع أن الاحاطة بجميع المعلومات مختص بها الله وحده اما الانسان فانه مهما أوتى من العلم فلا يصل إلا إلى القليل منه قال تعالى (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ومع ذلك فقد يعجز عن إدراك أوضح الحقائق وأيسر الأمور وربما جهل ماهو بديهى عند غيره وذلك آية النقص وعلامة الحدوث فيجب أن يتنبه العقل لذلك ولا تحمله صفة الربانية على الغرور وادعاء مالا يقدر عليه ولم يخلق لأجله فاذا لم يتنبه لذلك فانه يتصف بكثير من الصفات الذميمة كالغرور وانكار الحق والجهل بكثير من الحقائق وغير ذلك

كذلك قد تحمله صفة الربانية على حب الاستيلاء على الناس وقهرهم واستعبادهم والتفرد بالرئاسة والاختصاص بالأمور الى غير ذلك مما هو مختص بالله وحده فذلك أيضا مما يجب التنبه له والوقوف عند الحد المقدور عليه للمكن وترك ماهو من اختصاص الواجب ورحم الله من قال — لكل امرئ من الناس حدّ وهلاك الفتى جواز الحدّ —

تلك هى أصول صفات النفس ويتفرع عليها كثير من الصفات الذميمة فيتفرع على طغيان صفة الشهوة اللازمة للحيوانية كثير من الصفات الفاسدة ومن هذه الصفات الوقاحة . والخبث . والتبذير . والتقتير . والريا . والتهتك . والمجون . والعبث . والجشع . والملق . والحسد . والحقد . والشماتة . ويتفرع على طغيان الغضب كثير من الصفات الذميمة أيضا ومنها التهوّر . وتحقير الناس . والاستخفاف بهم . والاعتداء عليهم ظلما . وإرادة الشر . وغير ذلك ويتفرع على طغيان صفة الشيطانية المكر . والخداع . والحيلة . والدهاء . والجراءة . والغش . والتلبيس . وتضليل الناس . والتغرير بهم . وغير ذلك . وكل هذه الصفات تتعلق بالنفس وتتراكم عليها فتصير طابعا يحول بينها وبين معرفة الله تعالى وادراك حقائق الأشياء على وجهها وإلى ذلك الاشارة بما رواه ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال «الطابع معلقة بقائمة عرش الله عز وجل فاذا انتهكت الحرمة وعمل بالمعاصى واجترئ على الله بعث الله الطابع فيطبع على قلبه فلا يعقل بعد ذلك شيئا » رواه البزار والبيهقى . وذلك لأن العقل هو الملك المتصرف فى جميع الجوارح والمسيطر على كل الحواس الظاهرة والباطنة فيجب أن تكون لديه الوسائل الكافية لتنفيذ أمره ونهيه والمحافظة على مملكته فاذا أهمل الوسائل التى يستعين بها على ذلك وتقهقر أمام شهوته وغضبه فان المعاصى تتراكم عليه وتطبع فيه كما ينطبع الخاتم فيفقد الصفة التى خلق من أجلها وهى تدبير البدن والسير به فى سبيل النجاة ولم يعد يعقل شيئا من واجبه الذى يجب أن يكون عليه وانعكست عليه القضية فأصبح محكوما بعد أن كان حاكما . مملوكا بعد أن كان ملكا . خادما بعد أن كان سيداً ولا همّ له بعد ذلك الا استنباط الحيل فى مرضاة شهوته وغضبه . ولا تفكير له إلا فى تحصيل مايتطلبانه منه لايبالى بنصيحة ناصح . ولا ينظر إلى موعظة حكيم . ولا يسمع لداع إلى هدى . ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال انه لايعقل

شيء ؛ وذلك هو الظلم البين والضلال البعيد . قال تعالى : (أن لو نشاء لأصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لايسمعون) وقال : (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون)

أما اذا تنبه العقل من أول الأمر واستعمل العلم والحكمة فى ضبط شهوته وغضبه ووقف لها بالمرصاد فلا يسمح لها بمجاوزة الحدّ الذى خلق له فانه يكون انسانا كاملا متصفا بأحسن الصفات وأجل الأخلاق إذ يترتب على ضبط شهوتى الفرج والبطن . العفة . والقناعة . والهدوء . والتقوى وحسن الهيئة . والحياء . والظرف وغير ذلك من مكارم الأخلاق . ويترتب على ضبط الغضب والوقوف به عند الحدّ الواجب من الدفاع عن العرض والنفس والمال والدين وما فى حكم ذلك صفة الشجاعة . والكرم . والنجدة . وضبط النفس . والصبر . والحلم . والاحتمال . والعفو . والثبات . والشهامة . والوقار . وغير ذلك . ومثال العقل فى ذلك كله مثال المرآة . وآثار الشهوة والغضب كالدخان الذى يتصاعد اليها فيطمس نورها وآثار العمل بالعلم والحكمة كالمعدن الذى يجلوها ويزيد فى صفائها والمرء إما شقى فتتغلب عليه الشهوة والغضب فيكون من الهالكين . وإما سعيد فيتغلب عليه العقل والحكمة فيكون من الناجين

الوساوس التى تعرض للنفس

ومما يجب على العقل أن يتنبه له ويكون دائما على حذر منه تلك الوساوس النفسانية والهواجس الشيطانية التى تهيج بها الشهوة ويثور بها الغضب فهذه هى من أعداء العقل التى يجب محاربتها . والقضاء على أسبابها المتولدة منها فان هذه الوساوس قد تتولد بسبب الحواس الظاهرة . أو الباطنة إذا أساء الانسان استعمالها مثال ذلك فى الحواس الظاهرة أن يطلق العنان لبصره فى النظر إلى مالا يحل له أو فى النظر إلى المباهات التى يترتب عليها تمنيات فاسدة ومحاولات غير مجدية كما اذا تعمد النظر الى امرأة حسناء لاتحل له أو الى غلام امرد جميل فان ذلك من بواعث تهييج الشهوة وإثارة الوساوس النفسانية . والهواجس الشيطانية التى قد تحمل ضعيف النفس على طاعة شهوته وقضاء لبانته فيسعى وراء تلك المرأة أو ذلك الغلام ان وجد لذلك سبيلا والا انتقل الى مايمكنه الحصول عليه ليرضى شهوته الهائجة ولا يبالى بارتكاب الفاحشة وكذلك قد ينظر الى مايملكه غيره من القصور الجميلة والحدائق الغناء ونحو ذلك فتدخل الى نفسه الوساوس الفاسدة وتزين له انه كان أحق بملك هذا وأن مالكها غير أهل لها فيترتب على ذلك الحقد والحسد والغيرة وما الى ذلك من الصفات الذميمة التى تضر بالمجتمع الانسانى ضررا بليغا . وقل مثل ذلك فى حاسة السمع فان الانسان قد يسمع صوتا حسنا من غانية او غلام فتهيج شهوته ويترتب عليها ماذكرناه فى المثال الاول ومثل ذلك اذا تعمد النظر الى ما يثير غضبه وهكذا فى سائر الحواس الظاهرة كلمس مالايحل او شمه

ومثال ذلك فى الحواس الباطنة أن الصور التى تدخل الى النفس بسبب الحواس الظاهرة تبقى فى الخيال ولو كف عن الاحساس فتترتب عليها الوساوس التى ترتبت على نفس الاحساس وقد تهيج الشهوة

بعامل داخلي محض كما إذا أكل كثيرا اوكان فى مزاجه قوة طبيعية تهيج بسببها الشهوة فان كل ذلك تتولد منه الوساوس النفسية والهواجس الشيطانية فواجب العقل بازاء ذلك أن يزجر الحواس عن كل مايترتب عليه ذلك فلا يسمح لبصره أن يتطلع إلى مايثير شهوته ولا ينظر الى مايحرك غيرته او يثير غضبه. ولا يسمح لسمعه أن يسمع مايهيج شهوته او يثير غضبه ومثل ذلك فى سائر الحواس. واذ قد عرفت أن الحواس الظاهرة والباطنة قد تكون سببا فى الوساوس الفاسدة والخواطر الضارة فاعلم ايضا أنها قد تكون على العكس من ذلك فانها اذا استعملت فى النظر الى مصنوعات الله تعالى مثلا والى نظمها وفى سماع المواعظ والحكم ونحو ذلك فانها تفضي الى خواطر روحانية وهواجس ربانية يترتب عليها اليقين بالله تعالى والبعد عن المعاصي والخطايا وتأييد القلب فى حكم الشهوة والغضب والسير بهما فى الطريق القويم والصراط المستقيم فالقلب بين عاملين قويين يتنازعانه. وساوس شيطانية. وخواطر ربانية ولكل منهما اسباب ظاهرة واسباب خفية. فأما الاسباب الظاهرة فانك قد عرفتها واما الاسباب الخفية فهى الشيطان والملك فاما الشيطان فانه يعد بالشر ويامر بالفحشاء ويخوف من هم بعمل الخير بالفقر وأما الملك فانه يكشف الحق ويعد بالخير ويامر بالمعروف كما قال تعالى (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) فمن كان سعيدا فى دنياه وآخرته فانه يحارب وساوس الشيطان ووسائلها ويطرد عن نفسه مايضعفها من عوامل الشهوات والفساد والله ولى المؤمنين

مايؤاخذ عليه الانسان من تلك الوساوس

وما لا يؤاخذ

للانسان حالة قسرية لااختيار له فيها وتلك الحالة لايؤآخذه الله عليها لأن الله تعالى لايؤآخذ العبد على ماليس له فيه اختيار قال تعالى: (لايكلف الله نفسا الا وسعها) اما الحالة الاختيارية فانه يؤآخذ عليها إذا وصلت الى حدّ الجزم بالفعل ولنذكر لك مثلا يوضح ذلك المقام. اذا نظر المكلف إلى امرأة حسناء عفواً بدون قصد فهاجت شهوته فانه لايؤآخذ على ذلك رأسا لأن النظر لم يكن باختياره وهيجان الشهوة أمر طبيعي لااختيار له فيه أيضا فلا عقاب على شيء من ذلك فاذا أهاجت الشهوة وساوسه وتردد فى أنه يتبع هذه المرأة أو لايتبعها فانه لايؤآخذ على هذا التردد أيضا. فان جزم بذلك وهمّ بفعل الفاحشة ولكنه لم يفعل خوفا من الله تعالى كتبت له بذلك حسنة لأنه جاهد شهوته وقهرها بعد أن دفعته إلى أحرج المواقف أما إذا لم يفعل خوفا من أمر دنيوى أو لمانع آخر فانه يعاقب على مافى نفسه والى ذلك يشير قوله تعالى (إن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) وقوله صلى الله عليه وسلم «اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار فقيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال لأنه أراد قتل صاحبه» وهذا نص فى أن

ارادة قتل صاحبه جزما كاف فى العقاب فالذى يؤآخذ عليه المرء من حديث النفس هو الجزم بالفعل الاختيارى اما الخواطر التى تعرض وتزول ولا تترتب عليها آثار فهى كالخواطر الاضطرارية لامؤآخذة على شئ منها

أقسام الشهوة

تتنوع الشهوة الى أنواع شتى . شهوة الفرج . وشهوة البطن . وشهوة البنين . وشهوة المال . وشهوة الأنعام . وشهوة الحرث والزرع . وشهوة الجاه وبعد الصيت . وشهوة الحكم واستعباد الناس . وغير ذلك ولكن أشد الشهوات خطراً وأكثرها أثراً شهوة النساء . والأموال . والأولاد والى ذلك يشير قوله تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة) الآية فتلك هى الأمور التى يجرى الناس خلفها متزاحمين ويسعون وراءها مسارعين . فمنهم من يعرف القدر اللازم له فى حياته ويعرف الطريق السوى التى ينفذ منه اليها فلا يتعثر فى مشيته ولا يضل طريقه المستقيم وذلك هو الذى يغلب عقله على شهوته فلا يسمح لها بالطغيان ولا يرضى لها بالعصيان فيعيش سعيداً فى دنياه ويكون فى آخرته من الفائزين . ومنهم من يطلق لها العنان فلا يعرف لها حداً ولا يقف معها عند نهاية وذلك هو الذى تغلب شهوته عقله فيتخبط فى طريق الوصول اليها ولا يبالى أن يتعدى حدود الله التى حدها لها بل يصرف كل همه الى السعى وراءها من أى طريق والدخول اليها من أى باب ولو كان فى ذلك هلاكه وشقاؤه فى دنياه وآخرته وذلك هو الخسران المبين

شهوة الفرج

ركب الله تعالى فى الانسان شهوة الفرج تركيبا قويا وجعل لها عليه سلطة شديدة فاذا هاجت كانت أشد الشهوات عصيانا على العقل فلا تقبل منه صرفا ولا عدلا فاذا لم يكن قوى الارادة شجاعا انقاد لها صاغراً وأطاعها ذليلا . وانما جعل الله سبحانه تركيب هذه الشهوة على ذلك النحو من القوة والباس لما يقتضيه نظام الناس ويتطلبه بقاء العمران فى هذه الحياة الدنيا فلولا قوة هذه الشهوة وشدة سلطانها على الانسان لأبى أن يحتمل ما يترتب عليها من مشاق البيتوتة وتكاليف الزوجية وتربية الأولاد والكد من اجلهم والرضى بالآلام التى تنتابه اذا مرضوا أو أصيبوا بمكروه الى غير ذلك من

متاعب التربية وأثقالها. خلق الشهوة على هذا النحو من القوة من أوضح الدلائل على قدرة الخالق وكمال علمه وجليل حكمته فان الانسان مسوق الى التناسل رغم انفه مقهور على احتمال كل مايترتب عليه من العناء وهو مع هذا راض كل الرضى. وكذا المرأة فانها ما كانت لتستطيع حمل عبء الولادة والحمل ومشاق تربية الاولاد وهم صغار والسهر بهم الليالى والقيام على حراستهم ودفع الاضرار المكروهة عنهم وهم اطفال صغار واحتمال مايعتريها من الآلام وعدم الراحة لولا هذه الشهوة القوية وأيضا فان الله قد خلق النساء على حالة من الضعف لا يقدرن معها على احتمال تكاليف الحياة ومشاق الجهاد فى معتركها فسخر الله لهن الرجال يحملن عنهن كل مايعجزن عن احتماله فى سبيل حياتهن بدافع هذه الشهوة القوية ولولاها لما كان للنساء هذا السلطان على النفوس

الأسباب المثيرة لشهوة الفرج

وإذ قد علمت أن شهوة الفرج لها من القوة والتأثير هذه المنزلة وأنها إنما خلقت كذلك لحكمة يقتضيها نظام العمران وبقاء التناسل إلى الأمد الذى قدر له. فاعلم أن العقل مسئول عن تصريف هذه الشهوة والوقوف معها عند الحد الذى خلقت من أجله فلا يسمح لها بمجاوزة هذا الحد ولا يذرها تهيج بالوسائل المختلفة بل يجب عليه أن يبعد عن كل المناظر التى تحركها والاسباب التى تبعثها من مكمنها وأن يتبع معها سبيل الاعتدال فلا يفرط فيها ولا يفرط لأن الافراط فى شهوة الفرج تشبه بالبهائم والتفريط فيها تشبه بالجماد والاعتدال هو خير الأمور اللائقة بالانسان

أما الاسباب التى تثير هذه الشهوة وتهيجها فهى أمور. النظر. والخلوة. وحديث النفس. والغذاء الدسم الكثير. واستعمال بعض العقاقير والمخدرات وغيرها

النظر

فاما النظر إلى من لايحل سواء أكان أمرد جميلا أم امرأة حسناء فانه مثير للشهوة وموجب للوساوس النفسانية والخواطر الشيطانية المضعفة لقوة العقل فيتقهقر أمام هذه الشهوة ويفعل كل ماتطلبه منه ولو كان فيه هلكته وفناؤه لهذا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النظر الى من لايحل النظر اليه وقد ورد فى هذا أحاديث كثيرة. منها مارواه الطبرانى عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لتغضن أبصاركم ولتحفظن فروجكم او ليكسفن الله وجوهكم » ومنها مارواه أحمد باسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « العينان تزنيان والرجلان تزنيان والفرج يزنى » إلى غير ذلك من الأحاديث المتضمنة النهى عن النظر إلى من لايحل النظر اليه. وليس النظر إلى الجمال فى ذاته منهيا عنه لأن الجمال دليل على عظم الصانع وبديع قدرته وانما المحرم النظر المفضى إلى تهييج الشهوة وطغيانها والتفكير فى الاسباب والدواعى التى تسوقه إلى إتيان الفاحشة والقضاء على العفة ومكارم الأخلاق ولذا لم

ينه عن أول نظرة تصادفه بدون اختياره فاذا وقع بصره على امرأة جميلة عفواً بدون قصد فانه لايؤآخذ على هذا ولو هاجت شهوته وإنما المحرم أن يتبعها بأخرى فيثير شهوته باختياره وينزل تحت حكمها ولا يبالى بحكم العقل والدين. ولذا روى عن جرير رضى الله عنه أنه قال «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجاءة فقال اصرف بصرك » رواه مسلم وأبو داود والترمذى فلم يرتب رسول الله ﷺ شيئاً على النظرة الاولى وإنما أمره بصرف بصره فلا يتبع الاولى بغيرها لأنه فى هذه الحالة يكون قد خضع لسلطان الشهوة وتعمد إثارتها ورضى أن يتبعها فيما تتطلبه منه وفى هذا من الخطر ماقد علمته . وكما أن النظر المفضى الى اثارة الشهوة حرام على الرجال فهو حرام على النساء أيضا فلا يحل لهن أن ينظرن الى رجل بشهوة ولو كان أعمى أما النظر بدون شهوة فانه لاحرج فيه فلو نظر الى غلام أمرد جميل أو الى وجه امرأة نظرا خاليا من الشهوة واللذة فانه ليس بحرام حتى ولو أدرك معنى الجمال فان هناك فرقا بين الانفعال الحاصل للنفس عند ثوران الشهوة وبين تكيفها بمعنى الجمال . مثلا اذا نظر الى شجر نضر . أو نبات منسق بالأزهار المختلفة . أو نظر الى ثريات الانوار المنتظمة فانه بلا ريب يدرك معنى جميلا تتكيف به نفسه ولكن لايبعثه هذا الادراك الى المعنى الذى تتطلبه الشهوة من تقبيل الازهار أو عناقها مثلا فالنهى على الحقيقة انما هو عن اثارة الشهوة والاندفاع معها الى مالا يحل . على أن الأولى للانسان البعد عن النظر الى ماعساه أن يهيج الشهوة على أى حال فانه قد يقع فى شراك الشهوة من حيث لايدرى وقد يترتب على النظر بلاء وفتنة للمرء لايستطيع الافلات منها كما اذا أوقعه النظر الى الجمال فى العشق والغرام ولم يكن له قدرة على الوصول الى معشوقه فانه فى هذه الحالة لم يستفد سوى تعذيب القلب وشغل النفس بما لايجديه نفعا وقد يوقعه ذلك فى أشد الأخطار وأصعب المحن كما وقع لكثير من العشاق الذين هلكوا بسبب الهجران أو أضاعوا دينهم وكرامتهم مرضاة لمعشوقيهم وذلك هو البلاء المبين

ويعجبنى فى هذا المعنى قول بعضهم .

وكنت اذا أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

فينبغى للمرء أن لايجعل بصره رائداً لقلبه فيقوده الى مالا يستطيعه وفى هذا خطر جسيم. وبلاء عظيم

الخلوة

واذا كان النظر الى من لا يحل النظر اليه بقصد التلذذ به محرما فالخلوة بمن لاتحل محرمة من باب أولى لان الوساوس الشيطانية تجد لها مجالا فى هذه الحالة وثوران الشهوة يجد له مبرراً فيضعف العقل عند هذا ولم يكن له تأثير على زجر الشهوة فتسوقه الى ارتكاب الفاحشة كما يسوق الرجل دابته المطيعة لهذا نهى رسول الله ﷺ عن الخلوة فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « لايخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذى محرم » رواه البخارى ومسلم

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ « قال إياكم والدخول على النساء فقال رجل من الأنصار أفرأيت الحم قال الحم الموت » وقد فسر بعضهم الحم بأنه ابو الزوج وأخوه وعمه وابن عمه ونحوهم وقيل المراد أقارب الزوج أو أقارب الزوجة ومعنى قول رسول الله ﷺ الحم الموت أنه يموت ولا يفعل ذلك . وإذا كان فيه رواية عن نهى أبى الزوج عن الخلوة بامرأة ابنه مع كونه محرما فما ظنك بالقريب الذى ليس بمحرم لاشك أن فى ذلك منتهى الزجر عن الخلوة بالمرأة التى تشتهى ولو كان لايحل له تزوجها كأخت امرأته . وعمتها . وخالتها . وامرأة ابنه . بل وأم امرأته خصوصا عند فساد الزمان فان كثيراً من الناس أصبحوا عبيداً لشهواتهم وأصبحت أنفسهم ضعيفة لاتقوى على التفكير فى نتائج الفاحشة وفضائحها فخير للمرء ان يتجنب الوسائل التى تهيجها وتسلطها عليه

حديث النفس ووساوسها

وأما حديث النفس ووساوسها فقد تقدم الكلام فيه وقد علمت أنه إنما يترتب على الحواس الظاهرة . أو الباطنة كالنظر . واللمس . وغير ذلك إذا أسىء استعمالها فارجع اليه إن شئت

الغذاء الدسم أو شهوة البطن

إن شهوة البطن من شر الآفات التى تجعل المرء عرضة للأخطار وهدفا للأمراض البدنية والعقلية فهى سبب فى كثير من الأمراض التى تنتاب البدن وربما أفضت به إلى الهلاك كما أنها سبب فى بلادة العقل وضعف سلطانه على البدن. لذلك ورد فى السنة كثير من الأحاديث التى تنهى عن الشبع وملء البطن منها ماروى عن المقداد بن معديكرب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « ماملأ آدمى وعاء شراً من البطن بحسب ابن آدم أكيلات يقمن صلبه فان كان لامحالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » رواه الترمذى وحسنه ورواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه وفى هذا الحديث إشارة صريحة إلى أن الغذاء الذى يحتاج اليه الانسان فى قوام حياته يسير لايملأ ثلث المعدة وأن الاقتصار عليه نافع للانسان فان أبى إلا أن يأكل كثيراً فيجب أن لايزيد على ثلث المعدة ليترك الثلثين الباقيين للشراب والنفس وليس معنى كونه يترك الثلث للنفس أن يتنفس من المعدة كما قد يظنه بعض العامة بل المراد أن ملء المعدة ينشأ منه مضايقة الرئتين والقلب فيضر النفس ضرراً واضحاً

وهذا من أجل الحكم وأعظمها قدراً فان التجارب دلت دلالة قاطعة على أن معظم الأمراض التى تنتاب الانسان مصدرها المعدة وكثرة الطعام فكلما أمعن الناس فى التشهى والتفنن فى أنواع الطعام كلما كثرت امراضهم وتفشت بينهم الأدواء وكثير منهم يذهب ضحية الشره وملء البطن فلو فتشت القبور لوجدتها مملوءة بضحايا أكل اللحوم الكثيرة والأدهان والحلوى ونحوها وقد أجمع علماء الابدان

(الاطباء) على أن الغذاء الزائد على حاجة الانسان شديد الضرر وأن خير علاج للامراض الكف عن الشره وإعطاء المعدة القدر الذى تحتاج اليه من الغذاء

فاذا لم يكن فى الشره والأكل الكثير سوى ذلك الضرر المادى المحسوس لكان كافيا فى زجر النفس والوقوف بها عند الحدّ المطلوب منه فما بالك إذا كانت فيه غوائل أخرى تضر بالاخلاق وتؤثر فى الدين وتقضى على سلطان العقل . ومن أهمّ تلك العوامل أنه مثير لشهوة الفرج التى سبق الكلام فيها بل الشبع أشد تأثيراً فى تهييجها من النظر لان النظر أمر خارجى يستطيع العاقل أن ينصرف عنه بدون عناء . أما الشبع فهو أمر داخلى موجود مع المرء مادام شبعان. فاما المتزوج فقد تحمله شهوته على الافراط مع أهله فيضر بصحته ضرراً بليغاً وربما دفعه هيجان الشهوة والخضوع لمطالبها إلى ارتكاب الفاحشة مع غير زوجه شرها ولؤما . وأما الاعزب فان هيجان شهوة الفرج عنده من أخطر الامور عليه وأشدها ضرراً به فان سلطان العقل فى هذه الحالة يضيع وأمره ونهيه يذهبان سدى فاذا اعتدل الانسان فى غذائه واقتصر على القدر الذى يحتاج اليه بدنه ويكفى لمعدته اعتدلت شهوته واستطاع أن يوقفها عند الحدّ المطلوب منها

ومن مضار الاكل الكثير ثقل الجسم المفضى إلى الكسل وترك العمل المطلوب للدين والدنيا فان الاكول يزيد وزن جسمه فيثقل ويذهب نشاطه وخفته ويكثر نومه فلا يؤدّى واجبه على الوجه المطلوب منه

روى عن عائشة رضى الله عنها انها قالت « أول بلاء حدث فى هذه الامة بعد نبيها الشبع فان القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم فضعفت قلوبهم وجمحت شهواتهم » رواه البخارى فى كتاب الضعفاء . وقال رسول الله ﷺ « إنه ليؤتى بالرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة » رواه البخارى ومسلم فالشره فى الطعام ضار بالابدان ضار بالعقول ضار بالدين لذلك نهت عنه الشريعة الاسلامية وحذرت الناس من شره وليس المراد النهى عن التمتع بنعم الله تعالى والطيبات من الرزق(قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) وإنما المحرم هو القدر الضار بالابدان والعقول فالشريعة الاسلامية تنهى الناس عن استعمال وسائل الهلاك سواء كانت مادية أو معنوية وتحذر الناس تحذيراً شديداً من الافراط فى الشهوات على اختلاف انواعها وكذلك تنهى عن التفريط فيها فان الله سبحانه ماخلقها الا ليتنعم بها عباده ولكن الحذق والمهارة انما هو فى الوقوف معها عند الحدّ الذى خلقت من أجله ولا ريب فى أن القدر المباح من الشهوات الذى لايترتب عليه ضرر للجسم والعقل كاف فى النعيم بل هو عين النعيم وما زاد عليه شقاء وبلاء فان الانسان إذا أكل من كل شئ مباح يشتهيه قدراً يسيراً لايضايق المعدة فانه يتلذذ لذة لايعقبها ألم . ولا ينشأ منها ضرر وذلك هو معنى النعيم الصحيح أما اذا أفرط فى غذائه وأكثر من تناول الانواع المختلفة فقد كلف معدته حملا ثقيلا لاتستطيع النهوض به وكلف باقى أعضاء البدن مالا طاقة لها به وتلك لذة من شر اللذات لان عاقبتها بلاء وسقم فواجب على العاقل أن يمنعها ويكف عنها . وكذلك الحال فى شهوة الفرج وسائر اللذات

ومن هنا قال رسول الله ﷺ « سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام ويشربون ألوان الشراب ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون فى الكلام فأولئك شرار أمتى » رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى فى الكبير والأوسط . وبديهى أن ذلك الحديث يتضمن نهياً شديداً عن الشره فى الطعام والاسراف فى الشهوات . وانما النهى عن ذلك القدر الذى قررناه لك وهو الافراط فى الشهوات والخروج بها عن حدها الذى خلقها الله من أجله وهو ضار بالانسان ضرراً بليغاً خصوصا إذا أفضت به الرفاهية الى ترك الواجبات الدينية والدنيوية وأصبح لا يعنيه من حياته إلا التفنن فى أنواع الطعام والشراب والتفنن فى الزينة واللباس والتشدق فى الكلام الذى لا يفيد فانه فى هذه الحالة يخرج عن معنى الانسان ويكون أقرب شبهاً بالحيوان

استعمال العقاقير المهيجة لشهوة الفرج

من الناس من تستولى عليه تلك الشهوة وتملكه من جميع نواحيه فيصبح كالعبد المخلص لمولاه فى غيبته وحضوره لا يفكر الا فى طاعته ولا يعمل الا فيما يرضيه فترى كثيرا من هؤلاء تسكن فيهم تلك الشهوة بسبب طبيعى فيسعون فى اثارتها وتهييجها باستعمال العقاقير وتعاطى المخدرات وذلك منتهى الحماقة والجنون فانك اذا سمعت ان انسانا نام عنه عدوه وانصرف عنه فاذا به يسعى لايقاظه وإثارته عليه فانك لا تتردد فى الحكم عليه بانه مجنون لا ينضبط له عمل ولا يقام له وزن . كذلك شأن من تسكن شهوته بطبيعتها فيهيجها بالعقاقير والمخدرات فاذا هاجت اصابه من شرها فى دينه ودنياه ما كان فى مأمن منه وفى غنى عنه وعجيب أن مثل هؤلاء لا يفكر الواحد منهم فيما يعود عليه من الاضرار التى تنشأ من استعمال العقاقير والمخدرات فوق الأضرار التى تترتب على شهوة الفرج فان تلك العقاقير ينشأ منها للبدن أضرار قد تفضى به الى الهلاك فضلا عما يترتب عليها من التأثير على العقل ومخالفة الدين فشهوة الفرج اذا طغت وخرجت عن الحد الذى خلقت له تجر وارءها من البلاء والأذى مالا يقف عند حد . فيجب على المرء ان يجعل للعقل سلطانا كاملا على تلك الشهوة فلا يصرفها الا حيث يأمن غائلتها فى دينه وبدنه وماله فليس من الحكمة ان تسوقه تلك الشهوة الى تعاطى الحشيش والمخدرات والسموم التى يظن انها مثيرة لها فيقضى بذلك على عقله وبدنه وماله ودينه وكرامته وعند ذلك يندم حيث لا ينفعه الندم ولا تغنى عنه تلك الشهوة شيأ

الزنا واللواط

وشر مضار شهوة الفرج على النوع الانسانى الزنا واللواط ولهذا قد ورد النهى عنهما فى كتاب الله تعالى وسماهما سبحانه فاحشة قال تعالى (ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا) وقال تعالى فى توبيخ آل لوط (أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين) الآية وقد حرم الفواحش صريحا بقوله تعالى (قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن) ولقد وردت فى النهى عن الزنا

واللواط أحاديث كثيرة منها ماروواه البخارى ومسلم وغيرهما « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولايسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن . ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» . وكفى بذلك زاجراً للزانى لأنه فى حالة زناه ينزع الله منه الايمان كما ورد فى حديث آخر رواه ابوداود عن ابى هريرة قال قال رسول الله ﷺ «اذا زنى الرجل خرج منه الايمان فكان عليه كالظلة فاذا اقلع رجع اليه الايمان» فالزانى الذى لايتوب من جريمته ولايندم على فعلته لايعود اليه ايمانه ولايحسب فى عداد المؤمنين الذين يرجون رحمة الله تعالى ورضوانه. وكذلك اللواط فقد ورد فى النهى عنه احاديث كثيرة منها ماروواه الطبرانى فى الاوسط عن ابى هريرة ان رسول الله ﷺ قال « لعن الله سبعة من خلقه من فوق سبع سمواته وردد اللعنة على كل واحد منهم ثلاثا . ولعن كل واحد منهم لعنة تكفيه . قال ملعون من عمل عمل قوم لوط . ملعون من عمل عمل قوم لوط . ملعون من عمل عمل قوم لوط . ملعون من ذبح لغير الله . ملعون من أتى شيأ من البهائم . ملعون من عق والديه . ملعون من جمع بين امرأة وابنتها ملعون من غير حدود الارض . ملعون من ادعى الى غير مواليه» الى غير ذلك من الأحاديث المتضمنة زجراً شديدا عن هاتين الجريمتين . وما كان الله تعالى ورسوله ليحرما على الناس لذة من اللذات الا لما يترتب عليها من المضار والمفاسد التى تلحق النوع الانسانى فتؤذيه ماديا أو أدبيا . ولا ريب فى أن مضار الزنا المادية والأدبية لاتخفى على أحد من العقلاء . ولكن سلطان تلك الشهوة الفاسى يلهى الزناة عن تلك المضار وينسيهم عظمة الله الواحد القهار الذى نهاهم عن اقتراف تلك الجريمة وأوعدفاعلها شر العقاب وسوء المصير . ولو قام العقل بأداء واجبه واستعرض المضار التى تترتب على الزنا وزجر تلك الشهوة البهيمية وحذرها عاقبة الزنا وشره فى الدنيا وعذاب الله فى الآخرة لوقفت عند الحد الذى خلقت من أجله وأمن الانسان شرها . فمن مضار الزنا وآثاره السيئة فى المجتمع الانسانى ضياع النسل والجناية عليه . فالزانى والزانية لو أدركا مافد يترتب على زنيتهما التى تنقضى على الفور من الآثام لهان عليهما أن يفنيا من هذا الوجود ولا يرتكبا تلك الجريمة فقد يترتب على عملهما وجود ولد قد تخنقه تلك العاهرة فى مهده . وقد تسقطه جنينا . وقد تلده إنسانا كاملا ثم تنبذه بالعراء معرضا لمحن الحياة ومصايب الايام . لايعرف له أماً تحنو عليه . ولا أبا يرحم طفولته ويحفل بتربيته وقد تقذف به الاقدار فى حضانة من يربيه على غير دين أبويه أو على أخلاق فاسدة فينشأ عضواً ضاراً بالمجتمع الانسانى وذلك بلاء عظيم وضرر مبين . فاذا كانت الزانية متزوجة كانت خيانتها أشد وجنايتها أعظم فانها تدخل عنصراً غريباً بين أبنائها تغش به زوجها وقد يكون فى آخر أمره تكية على الاسرة بتمامها فانه قد ينزع إلى أبيه الحقيقى ويتبعه فى أخلاقه وفساده

قد يقول بعض الفساق إنه يمكن اتقاء خطر حدا باستعمال الوسائل التى تمنع الحمل والولادة وتلك لعمر الله أشد ضرراً على المجتمع الانسانى وأكبر جناية على العمران فان هذه البدعة إذا فشت فى أمة انقرضت جميعها فى وقت قريب لانها تكون قد قضت بيدها على ذرينها ونسلها وحكمت على نفسها بأن تكون أقل إدرا كا من الحيوانات التى تتناسل وتتوالد لبقاء العمران الى الامد الذى أراده الله . وأى جناية أكبر من أن يصبح الانسان لاهم له فى هذه الحياة الا قضاء شهوة بهيمية

لايعرف لها غاية . ولايدرك لها ثمرة مع انها لم تخلق الا للتناسل وبقاء النوع الانسانى . فاذا وجد بين الناس ذئب من الذئاب او بهيمة من البهم لايقدر ذلك ولايحفل به فماذا يصنع فى الاعتداء على اعراض الناس وافساد أخلاق نسائهم وبناتهم وأهليهم بل افساد اخلاق نسائه وبناته واهله فى آخر الأمر واى وسيلة يتقى بها ذلك الخطر الايظن أن الجناية على الاعراض اشد ضرر اواسوأ اثرا من الجنايات على الأموال فان الرجل يسهل على نفسه ان يضحى ماله فى سبيل المحافظة على عفاف زوجه او بنته او اخته او اهله بل كثير من الناس يهون عليه الموت والفناء فى سبيل ذلك . فليتصور الزانى والزانية قبل الاقدام على تلك الفعلة الشنعاء أن أمرهما قد انكشف وأن الزوج او الأخ او الأب داهمهما وهما على تلك الحالة فماذا يكون موقفهما حينئذ . هل تبقى ثورة الشهوة وسلطانها فلا يحفلان بمن داهمهما او تخور عزائمهما وتنخلع قلوبهما وتكاد ارواحهما تزهق ولا يبقى للشهوة فى تلك اللحظة اثر كأنها لم تخلق فيهما من قبل ثم ليتصورا ماذا يكون حال ذلك الزوج المسكين او الاب او الاخ او القريب الذى يتعير بتلك الفاجرة افلا يهون عليه فى هذه الحالة ان يضحى بكل ماله ولو خير بين ضياع المال وهذه الحالة لاختار ضياع المال بلا نزاع وكثير من الناس يطيش لبه من هول ذلك المنظر فيقتلهما ثم يقتل نفسه وهو لايدرى . وليس ذلك من باب الفرض والتقدير وانما هو أمر كثير الوقوع بين الناس وقد تكرر غير مرة . وهذا يدل دلالة محسوسة على فظاعة تلك الجريمة وصعوبة اثرها على نفوس من لهم علاقة بالزانية فما بال الزناة لايقدرون ذلك حق قدره ويعلمون أنهم ان نجوا فى الدنيا من الفضيحة فأنهم سيفتضحون فى الآخرة وأنهم سيؤدون ثمن ذلك لأصحاب الحقوق غاليا يوم يسأل الظالمون عن اعمالهم ولا يجدون لهم وليا ولا نصيرا فيساقون الى جهنم وبئس المصير . ألا يعلمون انهم ان ستروا أنفسهم عن اعين ولاة امر الزانية فان الله مطلع عليهم وانه خبير بأعمالهم وانه لن يترك مثقال ذرة من حقوق العباد بل يأخذها من حسنات هؤلاء المجرمين ان كانت لهم حسنات او يحملهم سيئات ارباب الحقوق ان لم تكن لهم حسنات ثم يساقون الى العذاب الأليم . فاذا وجد فريق من الناس قست قلوبهم وعميت بصائرهم واصبحوا لايبالون بحقوق الناس ولا يستحيون من الله تعالى ولايحسبون حساب يوم كان شره مستطيرا افلا ينبغى لهم ان يحسبوا حساب نسائهم وذريتهم فان الزانى لابد ان يهجر زوجه ان كان متزوجا فيحملها ذلك على البغاء مثله ويكون هو وزوجه مثالا سيئا لذريتهما وفى ذلك من فساد الاخلاق مافيه وقد ورد ما يشير الى ذلك فى السنة المطهرة فقد روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ «بروا آباءكم تبركم أبناؤكم وعفوا تعف نساؤكم» رواه الطبرانى باسناد حسن . ومعنى هذا أن العفة تجعل الرجل قاصرا على زوجه فتستغنى به عن غيره ومتى كانت المرأة ذات عفاف والرجل صالحا ذا عفة . نشأ من بينهما ابناء صالحون وذرية تقتفى أثرهما وتقتدى بهما وذلك هو الأدب ومكارم الأخلاق التى يدعو اليها دين الاسلام ويأمر بها الناس فى كل حركة وسكون. فاذا وجد فريق من الناس لايبالى بنسل ولا يحفل بعرض ولايعنيه أن يفسد نساءه وذريته كما لايضره فساد نساء الناس وذراريهم فذلك مالا يصح اقناعه لأنه يكون قد انحط عن درجة حمار الوحش والقردة وغيرهما من بعض الحيوانات التى تغار على اناثها فاذا فشت هذه الروح فى أمة من الأمم — وهى روح الاباحة

والفوضى — فانها تزول سريعا . وتنقرض عاجلا ولا يبقى لها ظل فى الوجود . وأظن أن ذلك كاف فى زجر النفس عن الزنا فلا حاجة إلى تذكير الناس بما ينشأ من الأمراض التى تترتب على اختلاط الزناة ببعضهم ذلك الاختلاط الممقوت مهما اتخذوا من أساليب الحيطة والحذر فان ذلك الاختلاط لابد أن يكون له أثره على أى حال ولا ما ينشأ عن الزنا من ضياع الأموال والجرأة على ارتكاب المحرمات فانك ترى كثيراً من الناس فقدوا أموالهم بسبب امرأة فاجرة واصبحوا لا قيمة لهم فى الوجود وترى كثيراً منهم قد فسدت كل أخلاقهم وأصبحوا أعضاء أشلاء بسبب هيامهم بزانية وأمثال ذلك أكثر من أن يحصى فمن أجل ذلك حرمته الشريعة الاسلامية تحريما شديداً وقرنه الله تعالى بالشرك والموبقات الكبيرة فى قوله تعالى (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا إلا من تاب)

أما اللواط فانه رذيلة من أسوإ الرذائل وخصلة من شر الخصال التى لا تليق بالانسان فان الله قد خلق الانسان من ذكر وأنثى وجعل الأنثى محلا لقضاء تلك الشهوة ومكانا لذلك العمل الخاص فهو مسوق بفطرته إلى ذلك المعنى ومخلوق بحسب نظام الكون على تلك الحالة . واللواطة خروج غريب عن النظام الفطرى واعتداء صريح على ما تقتضيه طبيعة الانسان لانه يقلب الذكر أنثى ويجعل الرجل كالمرأة فى أخص أوصافها التى خلقت لها وذلك شر وبيل وفساد كبير . ومن أجل ذلك يقول الله تعالى توبيخا لآل لوط (أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون) ويؤخذ من تلك الآية الكريمة أنهم أول من خرج عن طبيعة الانسان فى ذلك فدفعتهم شهواتهم الفاسدة إلى تغيير خلق الله وقلب نظام الطبيعة فسنوا تلك العادة الشائنة وجعلوا الرجال محلا للشهوة التى اختصت بالنساء ومجيب أن نرى عدوى تلك العادة تنتقل من هؤلاء الأشرار — الذين خسف الله بهم — إلى غيرهم من النوع الانسانى مع أنها لم تكد توجد فى الحيوانات الأخرى . فانك لا تكاد تجد حيوانا من الذكور يأتى ذكراً مثله فى دبره اللهم إلا قليلا نادراً كبعض الحمر الأهلية على أن من الحيوانات من يشعر بعار تلك الخصلة ويحس بما يحيق بالمفعول به من الذلة والهوان . كالجمل فانه إذا أريد إذلاله يؤتى له بجمل آخر يركب فوقه ويحاول إتيانه ومتى فعل معه ذلك يصبح مكروبا ذليلا . وإلى ذلك تشير الآية الكريمة فانه تعالى يقول لهم إن تلك الفاحشة لم يسبقكم بها أحد من العالمين والعالم كل ما سوى الله فيشمل الانسان والحيوان

واذا كان الانسان تسوقه شهوته إلى أن يفعل ما تأباه نفوس الحيوانات العجماء فماذا يكون حاله . أليس من أكبر المصائب أن تنحط درجة الانسان فى شهوة الفرج عن درجة الحيوان . اللهم إن فى ذلك من الخزى والعار مالا تطيقه النفوس الكريمة . ولا تحتمله الطباع السليمة فاذا لم يكن فى رذيلة اللواطة سوى ذلك لكفى بها ذماً يصرف عنها الناس ويزهدهم فيها ولكنها فوق ذلك يترتب عليها من المضار والمفاسد ما يؤذى المجتمع الانسانى وينافى طبيعة العمران . واليك البيان. أولا إذا فشت تلك العادة فى أمة من الأمم وأصبحت داء خلقياً فيها لا تلبث أن تتعرض للفناء بانقراض

نسلها ولو بعد حين لأن الرجال فيها تنصرف لامحالة عن النساء فيقل النسل تدريجاً وتنقرض الأمة فى وقت ما . ثانيا أن اللائط يستغنى بالذكر عن المرأة فان كان متزوجاً يهمل زوجه فيعرضها للخناوالفساد . وإن كان أعزب لايفكر فى الحصول على زواج أبداً وإذا عمت اللواطة أمةاستغنت رجالها عن نسائها وأصبحت النساء ضائعات لايجدن موئلا . ولا يظفرن بمعين يرحم ضعفهن وفى ذلك من الخطر الاجتماعى والعمرانى مافيه .

لعل بعضهم يقول إن النساء كالرجال يمكن استعمالهن كذلك فالحاجة اليهن مستمرة . ولكن المعروف عن اللائط أن داءه يبعثه إلى الذكور خاصة . فداء اللواطة مآله الانصراف عن النساء على أىّ حال . ومع ذلك فان إتيان النساء فى غير محل الولد عادة مرذولة يترتب عليها ضياع النسل كما قدّمناه لك آنفاً . ثالثا ان اللائط لايبالى أن يستهوى الأحداث الذين لايدركون العار ولا يعرفون الفضيحة فيمرنهم على فساد الاخلاق ويولد عندهم ذلك الداء فاذا مابلغوا حدّ الرجولة وجدوا أنفسهم منغمسين فى الرذيلة فيضيع الحياء من وجوههم ولا يبالون بارتكاب الجرائم الاخلاقية ولا يتعففون عن المحرمات الدينية ويكون وزر ذلك فى عنق هذا اللائط الذى عمل على إفساد أخلاقهم وكان سبباً فى نزع ماء الحياء من وجوههم وذلك عظيم عند الله تعالى ومن يفعله يضاعف له العذاب يوم القيامة لأن عليه وزرين وزر ذلك العمل الشائن ووزر إفساد الغلام الذى لم يكلف فسحقاً لتلك الشهوة الفاسدة التى تخلف وراءها ذلك البلاء المبين والعار المهين

رابعاً أن داء اللواطة قد يوقعه فى الغرام بغلام لايستطيع الوصول الى اتيانه فيكون ذلك سببا فى تهتكه وضياع شرفه ودينه وعرضه ومروءته وقد يفضى به ذلك الى ارتكاب الجرائم الاخلاقية جميعها بدون مبالاة فيموت قلبه ويضيع حياؤه ويصبح عضواً فاسداً لايخشى فضيحة ولا يخاف عاراً وقد يكون ذلك سبباً فى هلاكه فى الدنيا وله فى الآخرة سوء العذاب

ذلك بعض مضار اللواطة وهى كما ترى لها من الأثر السىّ فى أخلاق الناس مايؤذى المجتمع الانسانى ويضر بطبيعة العمران . ومن أجل ذلك قال الله تعالى لآل لوط (بل أنتم قوم مسرفون) وقال لهم فى موضع آخر (بل أنتم قوم تجهلون) فانهم حقاً يجهلون نظام الطبيعة ونواميس العمران ويجهلون فوق ذلك مايترتب على ذلك العمل من المضار التى تؤذى المجتمع الانسانى كما علمت آنفاً ولقد غضب الله على آل لوط غضبا شديداً فلم يؤخر عذابهم الى يوم القيامة بل عذبهم فى الدنيا فطبق عليهم مدائنهم التى كانوا يسكنونها وجعل عاليها سافلها ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.فرحم الله امرءاً أثرت فى نفسه العظات وزجرته الزواجر فلم يجعل للشهوات الفاسدة القاتلة عليه سلطانا . وقاتل الله من اتبع غيه وهواه وانقاد لتلك الشهوة الذميمة حتى صار كالأنعام بل هو أضل سبيلا

شهوة المال

تفاوت أغراض الناس فى طلب المال

تختلف طباع الناس وأغراضهم فى طلب المال اختلافا عظيما كاختلافهم فى كل ما يرون فيه السعادة والنعيم فمنهم من يقدس المال فى ذاته ويعتبره مقصدا من المقاصد التى يجد فى الحصول عليه اكبر لذة ويرى فى المحافظة عليه أكبر نعمة وإن لم يصل به الى أى غرض من أغراض الحياة ماديا كان أو أدبيا بل همه منحصر فى كنزه وادخاره وهؤلاء هم البخلاء الذين يحرصون على القليل منه كما يحرصون على الكثير ويبخلون على أنفسهم وأهليهم بما قد يكون ضروريا للحياة ولا ريب فى أن طبائع هذه الفئة قد انعكست وأحوالهم قد تبدلت فهم يعيشون عيشة الفقراء ويحاسبون حساب الاغنياء ولقد ورد فى ذم هؤلاء كثير من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ كما سيأتى بيانه فى مبحث البخل

ومن الناس من يطلب المال لينفقه فى سبيل شهواته سواء أكانت حلالا أم حراما ضارة أم نافعة وهؤلاء هم المبذرون الذين يجعلون المال وسيلة للشهوات الفاسدة واللذات القاتلة وهم أشد ضررا على أنفسهم وعلى المجتمع الانسانى من فريق البخلاء لأنهم سرعان ما يقضون على مالهم ويعيشون عالة على أمتهم فضلا عما تجره شهواتهم وراءها من الشرور والمفاسد

ومن الناس من يحصل المال ليكون ذا عظمة فى أعين الناس ومكانة فى أنفسهم كى يتصدرهم فى مجالسهم ويرأسهم فى محافلهم ويتقدمهم فى الشؤون العامة والخاصة ويسيطر عليهم فى احوالهم ويكون له السلطان التام . وهؤلاء قسمان قسم يظن أن المال وحده كاف فى ذلك فيحب العظمة من غير بذل والسيطرة من غير انفاق وهذا الفريق ينعكس عليه الغرض فان حب العظمة مع الشح سبب فى السخرية والاستهزاء ويعجبنى قول بعضهم

عثمان يعلم أن المدح ذو ثمن * لكنه يشتهى مدحا بمجان
والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا * حتى يروا عنده آثار احسان

وقسم يبذل المال ليكون عظيما ذا نفوذ وسلطان وهذا الفريق اذا هذب مقصده وحسنت نيته فانه ينتفع بهذا الخلق انتفاعا عظيما فانه اذا أنفق الفضل من ماله فى أعمال البر والاحسان مرضاة لله تعالى فان الناس يعظمونه بطبيعتهم ويجلونه بفطرتهم والانسان أسير الاحسان وقد قيل

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فليس فى حاجة الى أن يشترى العظمة والجاه بالمال وإنما هو يشترى ما عند الله من الرضى والثواب وذلك وحده كاف فى حصول غرضه الذى يريده «وإنما الاعمال بالنيات وإنما لكل امرء مانواه»

أما من جعل المال وسيلة للعظمة والكبرياء واستعباد خلق الله واذلالهم فلا يبالى أن يرشى الحاكم ليستبد له بمن يريد ولا يبالى أن ينفق المال فى اغراء الأشرار على ايذاء من يحب ايذاءه ولا يبالى أن ينفق المال فى التنكيل بخصمه ظلما وعدوانا فذلك مفتون بماله فتنة شديدة نعوذ بالله من شرها لأن المال فى هذه الحالة يكون شرا وبيلا على صاحبه يفضى به لا محالة الى غضب الله وعقابه الشديد وذلك هو الخسران المبين

ومن الناس من يطلب المال ليستعين به على خيرى الدنيا والآخرة فيربى به ابناءه تربية صالحة تنفع المجتمع الانسانى ويصل به رحمه ويواسى منه الفقراء والمساكين وينفق منه على أعمال البر والاحسان ويحفظ به كرامته ويصون به عرضه ويستمتع منه بما أباحه الله له من الحلال الطيب من غير تبذير ولا تقتير ينفق منه ما فرضه الله عليه وهو قرير العين منشرح الصدر . فذلك هو الموفق الذى يكون المال له مطية للآخرة وسفينة للنجاة ينفعه فى حياته وبعد مماته ويخلد له ذكرى صالحة فى الدنيا وله عند ربه أحسن الجزاء

مدح المال وذمه

والكلام فى السعادة

أما وقد علمت تفاوت أغراض الناس فى جمع المال وتباين مقاصدهم ونزعاتهم فى الحصول عليه فانه يمكنك أن تمدحه وتذمه باعتبارين مختلفين فكلما كان الغرض شريفاً والرغبة صحيحة كان المال ممدوحا وبالعكس . وكذا الحال فى جميع أحكام الشريعة الاسلامية وقضاياها فانها إنما تنظر إلى جلب المصالح ودرء المفاسد كما تقدم .

فيمدح المال إذا كان طريقا للخير ووسيلة للسعادة الحقيقية وهى النعيم الدائم الذى لا يفنى والملك المقيم الذى لن يزول . وذلك هو نعيم الجنة فى الحياة الآخرة . ومن أجل ذلك قال الله عز وجل (وأما الذين سعدوا ففى الجنة) الآية أما ماعدا ذلك من لذات الدنيا ونعيمها فان الحصول عليه ليس سعادة حقيقية لانه مقترن بالفناء . والجهل . والعجز . والفقر . والسعادة انما تتحقق بالبقاء الدائم . والعلم الكامل . والقدرة بلا عجز . والغنى الذى لا يزاحمه الفقر . ولن يكون هذا إلا فى الدار الآخرة حيث يكون النعيم الدائم والملك المقيم

ولقد جعل الله سبحانه سعادة الآخرة مرتبطة بوسائل فى هذه الحياة الدنيا لا تدرك إلا باتباعها ولا تنال إلا بالحصول عليها قال تعالى (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن) الآية فاذا سميت وسائل السعادة سعادة كانت جديرة بهذه التسمية

أما وسائل السعادة فهى أمور منها الفضائل النفسية . والأخلاق الدينية الكريمة التى حث الدين على التخلق بها . وأصول هذه الفضائل أربعة أشياء . الأول العقل وانما يكمل العقل بالعلم . الثانى العفة وانما تكمل بالورع . الثالث الشجاعة وانما تكمل بالمجاهدة . الرابع العدل والانصاف

ومنها المال الحلال اذا أنفق فى طريق حلال . ومنها الصحة . والعافية اذا استعملت فى طاعة الله . فتلك أهمّ وسائل السعادة الأخروية وما عداها تابع لها ومتفرع عليها فيجب على العاقل أن يسعى لاستكمال فضائل نفسه فيتعلم العلم النافع الذى هو أكبر عون للعقل على سلوك الطريق القويم وأن يتخلق بخلق العفة كى يقف مع الشهوات عند الحدّ الذى خلقت من أجله فلا يذرها تطغى عليه . وأن يتورع عما فى أيدى الناس من متاع الدنيا ولذاتها مما لايحل له . وأن يكون شجاعا يناضل عن الفضيلة. فيقول الحق . ويفعل الحق . ويدفع عن المجتمع الانسانى كل مايضره فى دينه وماله . وعرضه . وأن يعدل فى قوله وفعله فينصف الناس من نفسه ومن غيره وأن يعمل على مايحفظ صحته ويصونها من الضعف فلا يفرط فى الشهوات الضارة ببدنه ولا يعمل مايؤذيه كى يقوى على أداء الحقوق الدينية وأن يسعى لتحصيل المال من طريق حلال كى يستعين به على أداء الواجبات الدينية والحقوق الانسانية من حج . وصدقة واغاثة ملهوف . واعانة بائس . وخدمة وطن. بانشاء الأعمال الخيرية من مساجد . ومعاهد . وملاجئ يأوى اليها اليتيم والمضطر الى غير ذلك من أعمال البر والاحسان فان المال هو الذى يستطيع به مريد السعادة أن ينفقه فى كل هذه الأمور وقد يساعد المال على تحصيل الفضائل النفسية أيضا فان صاحب المال يسهل عليه الحصول على العلم والعفة ووسائل الصحة أكثر من غيره فمن فعل ذلك وهو مؤمن فقد أطاع الله تعالى وسعى للآخرة سعيها فكان سعيداً موفقاً فمن هذه الجهة يكون المال ممدوحا كل المدح لأنه فى هذه الحالة يكون وسيلة هامة من وسائل السعادة التى يجب على كل مؤمن أن يسعى لها ويعمل للحصول عليها

من أجل ذلك سمى الله تعالى المال خيراً فى مواضع من القرآن الكريم قال تعالى : (ان ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين) الآية والخير فى اللغة ضد الشر وهو قسمان خير مطلق وهو ما كان مرغوبا فيه من جميع نواحيه كالفضائل النفسية وخير مقيد وهو ما كان مرغوبا فيه من جهة دون جهة كالمال الذى نتكلم فيه فانه قديكون خيراً لشخص . وشراً ووبالا على آخر كما علمت. لهذا قال رسول الله ﷺ « نعم المال الصالح للرجل الصالح » رواه أحمد والطبرانى بسند صحيح وقال تعالى ممتناً على بعض عباده (يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين) الآية الى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على مدح المال . أما ماورد منها فى ذمه أو ذم الدنيا فهو محمول على ماأذا أنفق فى غير طريقه . أو جاء من طريق حرام وكذلك الأحاديث الواردة فى ذم الدنيا فاذا سمعت حديثاً فيه ذمّ للدنيا . أو للمال صرفته الى الحالات المذمومة التى تنشأ من المال واذا سمعت حديثا فيه مدح للدنيا . أو للمال صرفته الى الحالة الممدوحة التى يساعد عليها المال . وذلك لأن الشريعة الاسلامية على صاحبها أفضل الصلاة . وأزكى التحية . كالطبيب الحاذق الذى يصف لكل حالة علاجها ولا يتعلق له غرض بعقاقير الدواء فى ذاتها وانما كل همه منصرف الى محاربة المرض ونجاة المريض فكل ماتعنى به الشريعة الاسلامية انما هو تأديب النفوس وتطهيرها من أدران الشهوات وأقذارها والعمل فى هذه الحياة على ماتقتضيه الحكمة وتتطلبه مكارم الأخلاق يدل على ذلك ماروى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

الدنيا خضرة حلوة من اكتسب فيها مالا من حله وأنفقه فى حقه أثابه الله عليه وأورده جنته ومن اكتسب فيها مالا من غير حله وانفقه فى غير حقه أحله الله دار الهوان ورب متخوض فى مال الله ورسوله له النار يوم القيامة يقول الله (كلما خبت زدناهم سعيراً) » رواه البيهقى وفى رواية أخرى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الدنيا حلوة خضرة فمن أخذها بحقه بورك له فيها ورب متخوض فيما اشتهت نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار » رواه الطبرانى فى الكبير ورواته ثقات

فهذا الحديث يدل دلالة صريحة على أن جمع المال من طريق حلال وانفاقه فى طريقه المشروعة ممدوح فى نظر الشريعة الاسلامية يثاب عليه فاعله ويدخل به الجنة . اما جمعه من طريق حرام وانفاقه فى الشهوات الفاسدة واللذات المحرمة على الوجه الذى بيناه لك فانه مذموم ولصاحبه النار يوم القيامة . وأشار رسول الله ﷺ بقوله خضرة حلوة الى أن اللون الأخضر يلفت النظر لوضوحه . والحلاوة تجذب الانسان اليها . فالدنيا مرغوب فيها بطبيعتها تجذب اليها الناس قسراً ولكن الوصول اليها محوط بالأخطار . وفى الانسان عوامل الشهوات ودواعى اللذات تسوقه اليها سوقا عنيفاً فالعاقل هو الذى يتقى مواطن الخطر ويحذر طرق الهلاك فلا يندفع أمام شهواته الى تحصيل الدنيا من أى طريق لايرضاها العقل ولا يقرّها الدين بل يعمل بجدّ واجتهاد فى الوسائل المشروعة التى بينتها له الشريعة وبذلك يحصل على ماقدر له وهو آمن مطمئن ولذلك يشير عليه الصلاة والسلام فى الحديث بقوله « من اكتسب فيها مالا من حله وانفقه فى حقه أثابه الله عليه وأورده جنته . ومن اكتسب فيها مالا من غير حله وأنفقه فى غير حقه أحله الله دار الهوان » وهى جهنم وبئس المصير . وقد أشار الحديث الى الانفاق فى غير حقه بقول . رب متخوض فى مال الله ورسوله . أو رب متخوض فيما اشتهت نفسه ليس له يوم القيامة الا النار . فذلك هو الذى جعل المال ذريعة الى الخوض فى الشهوات . والانغماس فى اللذات واستعماله فيما يؤذى خلق الله واتخذه آلة للطغيان ووسيلة للعصيان فهذا لاينفعه ماله الكثير الذى يخوض فيه خوضاً . ولا تنفعه لذاته الكثيرة التى ينعم بها بل تضره ضرراً شديداً وتهلكه هلاكا مبيناً لأنها فانية زائلة ومن ورائها عذاب النار .

من ذلك تعلم تأويل الأحاديث الواردة فى الزهد فى الدنيا بما يطابق أغراض الشريعة الاسلامية واسرارها . فاذا سمعت ماروا ابن أبى الدنيا عن عبد الله بن عمر من قول النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « لايصيب عبد من الدنيا شيئاً الا نقص من درجاته عند الله وان كان عليه كريما » . فانك تفهم منه أن المراد بالدنيا هى التى تشغله عن عمل له عليه أجر فيضيع ذلك الأجر منه ولا ينتفع بها فى وجه من وجوه البر ولا يستعين بها على عمل الخير فيعوّض مافاته من الأجر .

يرشد الى ذلك معظم الاحاديث الدالة على الاجمال فى طلب الرزق ونحوه فانها ترمى كلها الى شئ واحد وهو التحذير من الحرام . خذ مثلا قول النبى ﷺ « ياأيها الناس ان الغنى ليس عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس وان الله عز وجل يؤتى عبده ما كتب له من الرزق فأجملوا فى الطلب

خذوا ماحل ودعوا ماحرم » رواه ابو يعلى فهذا نص فى التحذير عن الحرام وانه يجب على العاقل أن لاتدفعه شهوة المال والحرص على الغنى الى كسبه من طريق حرام وكذلك سائر الأحاديث الواردة فى ذلك الموضوع فانه يجمل تطبيقها على ما بيناه لك لأنه هو الذى يطابق احكام الدين من جميع الوجوه وجملة القول فى ذلك ان كسب المال والمحافظة عليه ان كان من طريق ترضاه الشريعة الاسلامية وتحث عليه فهو ممدوح وصاحبه مأجور وان كان على العكس من ذلك بان يكسبه من طريق حرام وينفقه فى لذاته المحرمة وشهواته الفاسدة ويستعين به على الاضرار بالناس ويحمله على الظلم والطغيان والعظمة والكبرياء فهو مذموم. أما من لاينفق فى هذا ولا ذاك فهو البخيل ويقابله الكريم وهو عكس البخيل ويتعلق بالبخل والكرم حالة أخرى وهى الاقتصاد او الاسراف والتبذير ما يتعلق بالرغبة فى المال العفة والحرص والطمع وسنعقد لكل منها مبحثا خاصا نذكره فيما يلى

الاقتصاد

هو ادخار جزء من المال ينفع صاحبه عند الحاجة اليه . ولقد علمت فيما مضى أن للمال جهتين . جهة مدح. وجهة ذم . فاما الأولى فهو مااذا أنفق فى سبيل السعادة الأخروية التى سبق بيانها فى مبحث مدح المال . ومنها الاستعانة به على حفظ العرض . والنفس . والدين . والتعفف عن الشهوات المحرمة . والزهد عما فى أيدى الناس . وكذلك الاستعانة به على أداء الواجبات الدينية من حج وزكاة . وصلة أرحام . وانقاذ حياة انسان من الهلاك ونحو ذلك مما يوصل الى السعادة الخالدة والنعيم المقيم فانفاق المال على هذا الوجه لازم ضرورى لايتصور فيه اقتصاد ومن يضن بانفاق ماله فى سبيل السعادة الخالدة فهو اما شحيح لايعرف الغرض الصحيح من جمع المال والمحافظة عليه . واما مبذر ينفق ماله على اللذات الفانية . والشهوات الفاسدة التى لانتيجة لها الا الافلاس والبؤس فى الدنيا والشقاء يوم الدين فهناك حالتان . ضن بالمال وشح . فلا ينفق على الواجبات الضرورية . ولا على اللذات والشهوات وتبذير واسراف بان ينفق فى سبيل اللذات والشهوات وهاتان الحالتان مذمومتان وانما الممدوح هو الوسط وهو انفاق المال فى سبيل السعادة التى ذكرناها ويتبعه الانفاق على الأهل والولد من غير تبذير . ولا تقتير . أما ماعدا ذلك من زخارف الحياة وزينتها . كالقصور والرياش الفاخرة والسيارات . والجياد المطهمة . وزيادة الخدم . والتفنن فى أنواع الطعام . والشراب . واللباس . وغير ذلك من أنواع اللذات فانه مباح مادام منطبقاً على قواعد الدين لايخرج عن حدوده لأنه حينئذ يكون من طيبات الرزق والله تعالى يقول (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) انما تكون حراما إذا ترتب عليها حرام كأن ينفق فى سبيلها مالا يحتمله ماله فيفضى به

ذلك إلى الافلاس فى تجارته . أو زراعته . أو صناعته . أو غير ذلك لأن ذلك هو التبذير الحرام الذى نهى عنه الله ورسوله كما ستعلمه بعد هـذا . وكذلك إذا استغرق الانفاق على هذه الكماليات كل ربحه فيضر برأس ماله فلم يستطع القيام بالواجبات الدينية أوالعمرانية ولم يتمكن من ادخار شئ ينفعه عند الحاجة اليـه . أو ترتب عليها ضياع مال الناس كما إذا كان مدينا لغيره فانفق ماله فى تلك الزخارف واللذات . أو ترتب عليها اغراق فى الرفاهية ومبالغة فى التنعم فقسا قلبه بذلك وانصرف عن طاعة ربه او تكبر على خلق الله تعالى الى غير ذلك من الآثار السيئة التى لايقرها الدين ولا ترتضيها شريعة سيدالمرسلين عليه الصلاة والسلام

وبالجملة فان زخارف الدنيا وزينتها ولذاتها ونعيمها متى كانت حلالا طيبا ولم يترتب عليها إسراف أو خروج عن دين الله تعـالى فانها مباحة فى نظر الدين والا كانت حراماً

ومن هـذا البيان يمكنك أن تعرف معنى الاقتصاد ومعنى التبذير . والاسراف فى نظر الدين فقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « التبذير إنفاق المـال فى غير حقه »ومعنى هذا أن المبذر يجهل مقادير الحقوق التى تستوجب انفاق المـال فيتجاوزها إلى غـيرها أو يعلمها ولـكن تدفعه شهواته إلى مجاوزتها ومعنى التبذير والاسراف واحد فى نظر الدين لأن مآلهما واحد وهو إنفاق المال فى غير موضعه وإن كان بينهما فرق فى اللغة وهو أن الاسراف جهل بمواقع تلك الحقوق أى أنه ينفق ولا يعرف كيف ينفق بخلاف التبذير فانه جهل بمقادير تلك الحقوق كما علمت فالأول جهل بالكم والثانى جهل بالكيفية . وروى عن ابن عباس ومجاهد وابن زيد أن الاسراف هو الانفاق فى المعاصى والقتر هو الامساك عن الطاعات . وقال عون بن عبد الله الاسراف أن تنفق مال غيرك وكل ذلك يشمله كلامنا الذى أوضحناه لك آنفاً

أدلة الاقتصاد

ورد النهى عن الاسراف والتبذير والحث على الاقتصاد فى كتاب الله وسنة رسوله فمن ذلك قوله تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) ومعنى قواماً وسطا وعدلا .وقال تعالى (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً)

فالآية الأولى حثت على الاقتصاد وهو الانفاق الممدوح الذى بيناه لك . والآية الثانية نهت عن التبذير وهو الانفاق المذموم الذى علمته وفيها إشارة إلى ما ينبغى الانفاق عليه وهو أن يكون فى سبيل البر والخير وقياما بالواجبات التى فرضها الله تعالى على عباده كحقوق الأقرباء والمساكين وأبناء السبيل ولقد ذم الله المبذرين فجعلهم إخوان الشياطين وقرناءهم فى كفران أنعم الله تعالى التى

أنعمها عليهم فبدلا من أن يشكروه سبحانه عليها بامتثال امره فى شأنها فانهم وضعوها فى غير موضعها فانقلبت عليهم نقما وكانت نتيجتها العذاب مع الشياطين . ومن ذلك ماأخرجه الترمذى من أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة » ومعنى الحديث أن هذه الخصال من شمائل أهل النبوة وجزء من أجزاء فضائلهم فينبغى الاقتداء بهم فيها . ولا ريب فى أن هذه الأمور جديرة بأن تكون من أخلاق النبيين لما اشتملت عليه من مكارم الأخلاق وأحاسن الصفات فأما السمت الحسن وهو الهيئة الحسنة فان صاحبه يكون محبباً عند الناس لاتنفر منه طباعهم ولا تستنكره أنفسهم فيقربونه منهم ويستفيدون منه ويستفيد منهم . وأما التئد فى أموره التأنى فى أقواله وأفعاله فان كل مايصدر عنه منها يكون مأمون العاقبة لايترتب عليه ضرر لنفسه ولا لغيره فلا يسارع فى إساءة الناس ولا يستعجل فى إيصال المكروه اليهم ولا يعمل مايعود عليه بضرر أدبى أو مادّى فهو دائما حافظ لسانه ويده فلا يقدم على أمر إلا إذا درسه من جميع نواحيه ولا يدخل فى مأزق لايستطيع الخروج منه ولا يستمسك عليه أحد بذلة ولا يؤآخذه بخطأ وذلك هو العاقل الذى يزن أموره بموازين الحكمة والصواب .

وأما المقتصد فهو دائما عزيز الجانب كريم النفس لاتدفعه الحاجة إلى أن يذل لغنى يستدين منه . أو يستجديه . ولا تضطره الشهوات إلى الملق والنفاق لمن يظن أنه يسد حاجته ولا يسوقه التوسع فى المأكل والمشرب والمسكن وغيرها إلى الجبن والصغار . ولاتزين له عوامل الزينة والزخرف اقتراف الحرام أو جمع المال من أى طريق . ولا تذهب به الرغبة فى سكنى القصور إلى قول الزور . ولا تحمله الرفاهية على مساعدة المبطلين والتنكيل بالأبرياء والمظلومين . ولا يقضى عليه ذلك النعيم الزائل بافناء ذاته وتضييع كرامته فى سبيل الحصول عليه إلى غير ذلك من الصفات الذميمة التى تنشأ عن الاسراف والتبذير . ويحسمها الاقتصاد . من أجل ذلك كان الاقتصاد من أخلاق النبيين وحث الله عليه فى كتابه الكريم

الشح

تعريفه

الشح هو الامساك حيث يجب البذل سواء كان واجبا دينيا كزكاة المال والنفقة على الزوج والعيال ونحوهم ممن تجب عليه نفقتهم . وكذلك الانفاق على احياء نفس يتوقف عليه احياؤها ونحو ذلك . او كان واجبا مروءة بأن ينفق ماينا سب حاله فلا يليق أن يكون ذامال كثير ثم يبخل على نفسه بالطيبات

من الرزق. او يضيق على أولاده وأهله فيحرمهم من انعم الله تعالى. او يضيق على ضيفه .او يسقط كرامته فى اعين البيئة التى يعيش فيها كأن يسفل فى مسكنه او ملبسه او مركبه او ينحط الى مرتبة لاتليق به فى المعاملة فيصبح بذلك عرضة لتحقير الناس اياه ونحو ذلك. فاذاحفظ الانسان نفسه من هذا لايكون بخيلا فى نظر الدين اما كونه كريما فى نظر الناس فذلك تابع لحالة الرجل المالية وتفاوت انظار الناس فى تقدير الكرام فمن كان ذا مال كثير أو متوسط ثم أنفق منه ماينا سبه كان كريما فى نظر الناس أما من كان ذامال كثير فاقتصر فى الانفاق منه على الواجب دينا ومروءة فانه لايسمى كريما عندهم خصوصا اذاوجد بجواره من يبذل كثيرا من ماله فى سبيل البر كتشييد المدارس وتعمير المساجد وتربية الأيتام وبناء المصحات ونحو ذلك فان الذى يقتصر فى الانفاق على الواجب مع كثرة ماله يعده الناس فى جانب هذا بخيلا وان ارتفع عنه مايترتب على البخل من المؤآخذة الدينية .هذا ولا بد فى الكرم من أن يكون صاحبه مدفوعا بطبيعته كما تقدم فمن بذل المال تكلفا بسبب قسرى كأن يرغمه عليه حاكم اولغرض من الأغراض الأخرى كالحصول على جاه او رتبة اومدح اوشهرة فانه لايكون كريما

مضار الشح

وآثاره السيئة بين الناس

شر مضار الشح وأكبر آفاته فقد التعاون بين الناس وذهاب التراحم والتوادّ من بينهم وحلول العداوة والبغضاء محل ذلك لأن الشحيح يبغض التعاون بطبيعته ولا تسمح نفسه ببذل شئ من ماله ولو يسيرا لمساعدة الضعفاء فتمتلئ قلوبهم ضغنا عليه وتثور انفسهم حسداً عليه فاذا فشى الشح فى أمة كانت نتيجته فوضى الاشتراكية التى يترتب عليها سفك الدماء واستحلال المحارم لذلك يشير قول النبى ﷺ «وإياكم والشح فانما هلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالفجور ففجروا » من حديث رواه ابو داود والحاكم — والشح والبخل بمعنى واحد فمعنى قوله عليه الصلاة والسلام أمرهم بالبخل فبخلوا أمرهم عن الكف عن معونة الناس وقيل الشح الحرص على ماعند غيره . والبخل الحرص على ماعنده. وكذلك قوله ﷺ «اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على ان يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم » رواه مسلم

فذلك صريح فى أن الشح خطر اجتماعى كبير يترتب عليه هلاك الامم وفناؤها لأن الانسان بحسب تكوينه الطبيعى وفطرته التى فطره الله عليها محتاج الى التعاون مع غيره فى هذه الحياة فلا يمكنه

أن يسلك سبيلها وحده وأن يقطع مراحلها منفرداً بل لابد له من ذلك في الاستناد الى غيره والتعاون معه في كل أطواره من وقت وجوده الى أن يوارى في التراب. وكلما اشتد ضعف الانسان اشتدت حاجته الى غيره فتراه في حال طفولته محتاجا الى غيره في كل شيء فاذا ما نشأ وترعرع استقل في بعض أموره ولم تنقطع حاجته في البعض الآخر حتى بعد أن يبلغ أشده وتتعلق به تكاليف الحياة التي تسوقه الى مزاحمة غيره في وسائلها فانه لا يمكنه أن يقطع مراحلها الا بمساعدة غيره والتعاون معه

ومن ذلك يتضح أن التعاون من ضروريات المجتمع الانساني وبقاء العمران وكذلك التراحم بين الناس بان يرحم قويهم ضعيفهم ويساعد غنيهم فقيرهم ويواسي صحيحهم سقيمهم فانه لازم من لوازم الانسانية والشح ينافي التعاون والرحمة جميعا فمحال على الشحيح ان يعين غيره وهيهات ان تجد الرحمة الى نفسه سبيلا لأن الشح يدعوه الى أن يقاطع ارحامه وأقرب الناس اليه واعلقهم به فضلا عن البعيدين عنه. يدعوه الى القسوة والغلظة فلا يغيث مكروبا ولا يعين ضعيفا ولو توقفت حياته على معونته. يدعوه الى أن يكسب المال من اى طريق بدون تفرقة بين حلال وحرام. يدعوه الى أن يحقد على كل من يحاول أخذ شيء منه ولو كان من أبنائه وأهله وقد يفضي به ذلك الحقد الى ارتكاب الجنايات وسفك الدماء. يدعو الناس الى كراهة صاحبه والحقد عليه وهم لا يتأخرون عن أذيته متى وجدوا لذلك سبيلا. فلا ريب في أن الشح من أكبر الآفات التي تضر بالمجتمع الانساني وتقضي على صلاح العمران وهلاك الأمم لا محالة كما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام. ومن أجل ذلك فرض الله على أرباب الأموال أن يجعلوا للفقراء جزءا من أموالهم قال تعالى (وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) كما فرض عليهم التعاون على البر والتقوى قال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) وقد حث رسول الله ﷺ على التراحم بين الناس فقال «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله» من حديث رواه البخاري ومسلم. وقال لا تنزع الرحمة الا من شقي رواه ابو داود وغيره الى غير ذلك من الأحاديث الدالة على ضرورة التراحم بين الناس والحث على التعاون في جميع شؤون الخير والشحيح لا يبالي بأمر الله ولا يتأثر بزجر رسول الله ولا يعنيه في سبيل الحرص على ماله. أخربت الدنيا أم عمرت. أشقي الناس أم سعدوا. أضلوا أم اهتدوا وذلك هو الخسران المبين والضلال البعيد ولذلك استعاذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من الشح فقال «اللهم انا نعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات» رواه مسلم وغيره

ونحن نستعيذ مما استعاذ منه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فنسأل الله الوقاية من الشح إنه سميع الدعاء

هل الشح صفة
طبيعية فى الانسان

هو رذيلة من الرذائل النفسية وصفة منحطة من أسوإ صفات الانسان تنشأ غالبا من فرط الحرص على المال والأمل فى استمرار الحياة والخوف من الفاقة والفقر وهل هو صفة طبيعية لازمة لبعض الأنفس فلا ينفع فيه العلاج . أو هو صفة عارضة تأتى وتزول وينفع فيها العلاج رأيان لعلماء الأخلاق. فمنهم من يقول إن بعض صفات النفس صفات طبيعى كصفات الجسم اللازمة مثل العمى والعور والصمم وغير ذلك . وبعضهم يقول إنها صفات عارضة تأتى وتزول . والواقع أن بعض صفات النفس قد تتمكن منها وتتملكها من جميع نواحيها لأسباب مختلفة فتصبح لازمة لها فيتعذر زوالها . لافرق بين أن تكون صفة مدح كالحلم والكرم . أو صفة ذم . كالبخل والحسد فاننا نعلم من أحوال بعض الكرماء . والبخلاء مايجعلنا نجزم بذلك . فمن الكرماء من لايبالى بذهاب كل ماله وروحه فى سبيل الكرم ولا يمكن أن ينثنى عن ذلك بأى حال ومن البخلاء من يضحى شرفه وكرامته ويعيش بائساً متسولا فى سبيل جمع المال والحرص عليه ولا يتحول عن ذلك بأى وسيلة من الوسائل . وإذا رأيت واحداً منهم يرغم على بذل شئ فذلك لاينافى الشح لأن الكريم هو الذى يكون مسوقا للبذل بطبيعته فتى تمكنت الصفة من النفس أصبح زوالها متعذراً ولكن لم يكن ميؤسا من زوالها كاليأس من زوال العمى مثلا . أما إذا لم تتمكن الصفة من النفس ولم تصبح داءاً عضالا لها فانها تزول بالعلاج والوسائل الفعالة . وذلك مشاهد أيضا . فانك ترى بعض الناس يبخل زمنا ثم يتصدق فى نهاية أمره بجزء عظيم من ماله . وبعضهم يكون كريما ثم يعرض له الخوف من الفقر فينقلب شحيحا . فالذى يظهر أن الانسان ليس مفطوراً على صفات نفسية خاصة بل كل صفات النفس مكتسبة إلا أن بعضها قد يتمكن من النفس فيصبح ملكة لها يتعذر زواله وبعضها لايكون كذلك فيسهل علاجه على أن الناس متفاوتون فى الاستعداد لقبول المرض والبرء منه

نوادر البخلاء

وللبخلاء نوادر غريبة نروى بعضها عن الامام الغزالى . منها أن محمد بن يحيى بن خالد بن برمك كان بخيلا شديد البخل وكان له نسيب بائس فقال له بعضهم أنت منه بهذه المنزلة واثوابك ممزقة

فقال إنى لاأقدر على إبرة أخيطها بها . ولو ملك محمد بيتا من بغداد الى النوبة مملوءاً إبراً ثم جاء جبريل وميكائيل ومعهما يعقوب أبو يوسف يستعيرون منه إبرة ليخيطوا بها قميص يوسف الذى قدّ من دبر مافعل . فقال صفلى مائدته قال هى فتر فى فتر وصحافها من حب الخشخاش ولا يأكل معه إلا الذباب ولا يحضره إلا الكرام الكاتبون. ومنها أن مروان بن أبى حفصة كان لايأكل اللحم حتى تشتد شهوته اليه فاذا اشتهاه أرسل غلامه فاشترى له رأسا . فقيل له لماذا لاتأكل إلا الرءوس فى الصيف والشتاء . فقال لأننى آمن عليها فلا يستطيع أن يأخذ أحد منها شيئا ومع ذلك فاننى آكل منها ألوانا كثيرة . وخرج مرة للقاء أمير المؤمنين فقالت له واحدة من أهله إذا أعطاك جائزة فاذا تعطينى منها قال إن أعطانى مائة الف أعطيك درهما فاعطاه ستين ألفا فاعطاها أربعة دوانق . ومنها أنه كان بالبصرة رجل موسر بخيل فقدم له بعض أصدقائه طعاما لذيذاً فاكل منه وأكثر وجعل يشرب الماء فانتفخ وأصابه كرب شديد فوصف حاله لأحد الأطباء فقال له يتقيأ فأبى أن يتقيأ ذلك الطعام اللذيذ وقال الموت ولا ذلك

واننا نشاهد بيننا أمثال هؤلاء كثيرين لم نر حاجة إلى التطويل بذكرهم .

الجود والسخاء

ذكرنا لك أن الشح من الأمراض النفسية المرذولة التى يجب على العقلاء علاجها وتطهير أنفسهم منها لما يترتب عليها من المضار الاجتماعية والعمرانية . ويقابل الشح الكرم ويسمى الجود والسخاء وهو من الصفات النفسية الممدوحة التى يسود بها صاحبها ويكون له السلطان الكامل على نفوس الناس والمكانة الرفيعة فى قلوبهم . وقد علمت مما تقدم أن القوانين الشرعية تجعل لانفاق المال حدوداً فيجب مراعاتها وعدم الخروج عنها حتى يتمكن الانسان من قطع مراحل الحياة آمنا مطمئنا قادرا على أداء الوظائف المطلوبة منه بدون انقطاع فلا يقتر ولا يسرف عملا بقوله تعالى (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) فانه اذا بخل حمله البخل على الكف عن أداء الحقوق والواجبات . واذا أسرف نفد المال فاعجزه ذلك عن القيام بتلك الحقوق . فالنتيجة فى الحالتين واحدة وهى عدم أداء الحقوق والواجبات إن عاجلا أو آجلا إلا أنها فى البخيل أشد ذما والخش أثراً لأنه متمكن من الأداء قادر على الوفاء ولم يفعل ضنا بالمال . أما المبذر الذى ينفد ماله ولم يجد مايقوم به من الحقوق فهو وإن كان ملوما محسوراً إلا أن لومه أقل وذمه أهون وقد بينا أن الشح هو الامساك حيث يجب الانفاق كالامساك عن الانفاق على الواجبات الدينية والنفقات الشرعية كالنفقة على الأهل والزوج والولد والنفقة على مايحفظ الكرامة والعرض والدين فكل ذلك ضرورى . وكذلك بينا أن التبذير هو أن ينفق المال فى غير موضعه فيضيعه

فى شهواته الفاسدة ولذاته المحرمة ويصبح محتاجا يائسا . أما الاقتصاد فهو التوسط فى الأمور بان ينفق فى الواجبات والحقوق ويدّخر شيئا من ماله ينفعه عند الحاجة اليه كما تقدم

وأما الكرم والجود فهو أن ينفق ماتقتضيه الواجبات والحقوق وتتطلبه حالته المالية من وسائل البر وأعمال الخير النافعة للمجتمع . وقد وردت أحاديث كثيرة فى مدح الجود . منها قوله ﷺ « ان الله كريم يحب الكرم ويحب معالى الأمور » رواه الطبرانى وغيره واسناده صحيح .

فالكرم يحبه الله تعالى لأنه صفة من صفاته كما يحب معالى الأمور ويكره سفاسفها . فالكرماء محبوبون من ربهم ومن أحبه الله فقد أمن غوائل الحياة الدنيا والآخرة وأصبح ظافراً بسعادة الدنيا والآخرة . وكذلك حال الكرماء فانهم لن يمسهم سوء فى دنياهم . فانك ترى الناس يقدسونهم ويسعون فى مرضاتهم وخدمتهم . ويبادرون الى إنقاذهم مما قد يصيبهم من مكروه لأن آثار إحسانهم تدفع الناس الى ذلك بدافع الرغبة الطبيعية وتحثهم على احترام الكرماء واجلالهم واحلالهم أرفع محل وأعظم مكان . ذلك فى الدنيا . وأما فى الآخرة فانك قد علمت أن انفاق المال فى الواجبات الدينية والحقوق الشرعية من أكبر وسائل السعادة الأخروية . والكريم لايحجم عن الانفاق حيث يجب الانفاق فهو محبوب لله عز وجل من أجل ذلك وله الجنة خالدا فيها جزاء كرمه وطاعة ربه وهذا جزاء المحسنين

وقد يبلغ الكرم من النفوس مبلغا عظيما فيملكها من جميع جهاتها ونواحيها . ولهذا أمثلة كثيرة ونوادر لاتقف عند حدّ مذكورة فى كتب الأدب والتاريخ وأغلبها منقول عن العرب فانهم كانوا يتعشقون صفة الكرم ويرونها من ضروريات الحياة . ومن ذلك أن عبد المطلب جدّ النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يطعم الطير والوحش مبالغة فى الكرم ورغبة فى الانفاق . وقد حذا حذوه ولده هاشم فكانت له مائدة مستمرة لاترفع شتاء ولا صيفا وكذلك حاتم طىّ فان نوادره فى الكرم مضرب للأمثال . وغيرهم كثير . كمعن بن زائدة الشيبانى ونحوه .

أما كرم رسول الله ﷺ فانه لاحدّ له فيوصف . ولا نهاية له فيعرف قال أنس « إن رسول الله ﷺ لم يسأل عن الاسلام شيئا إلا أعطاه فأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة فرجع إلى قومه فقال ياقوم أسلموا فان محمداً يعطى عطاء من لايخشى الفاقة » رواه مسلم . وفى هذا الحديث دلالة على أن الكرم له من السلطة على نفوس الناس ماليس لغيره من الأمور فقد فعل فى أنفس هؤلاء مالا تفعله السيوف من تغيير العقيدة التى كانوا يقدسونها على أنه ينبغى أن يلاحظ القانون الشرعى المارّ ذكره فى الانفاق وهو عدم التبذير والاسراف ومجاوزة الحقوق والواجبات لأن فى هذا نفاداً للمال الموجب للعجز عن أداء الحقوق والواجبات والاحتياج الى الناس وهو شر عظيم على المرء لأنه يذله ويضيع كرامته ويسقط مروءته وكل هذا لايرضاه الدين ولا يقره العقل ولهذا قال الأعرابى إن محمداً ﷺ يعطى عطاء من لايخشى الفاقة وقد كان ﷺ آمنا من شر الفاقة عالما بان الله تعالى لن يخزيه فكان ينفق على ذلك الحساب ﷺ

الحرص والطمع

والقناعة

لانزاع فى أن المال مرغوب فيه بطبيعته ومحبب الى الناس على اختلاف أحوالهم وتباين أغراضهم كما تقدم فى مبحث مدح المال وذمه وقد ذكرنا هناك بعض الأحاديث التى تشير لذلك وسنذكر لك هنا بعضا آخر . فمن ذلك مارواه أحمد والبيهقى بسند صحيح عن أبى واقد الليثى قال « كان رسول الله ﷺ اذا أوحى اليه أتيناه يعلمنا مما أوحى اليه فجئته ذات يوم فقال ان الله عزوجل يقول انا أنزلنا المال لاقام الصلاة وايتاء الزكاة ولو أن لابن آدم واديا من ذهب لأحب أن يكون اليه الثانى ولو كان اليه الثانى لأحب أن يكون اليهما الثالث ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب » وما رواه مسلم وغيره من أن النبى ﷺ قال « يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر » والحديث الاول يشير الى الغرض الذى من أجله خلق الله المال وهو أن يستعين به الناس على أداء الواجبات الدينية والحقوق الشرعية وينفقونه فى سبيل السعادة والبر . فمن كمل عقله واستنارت بصيرته فانه لايندفع بعامل الحب الطبيعى للمال الى الشح به فى مواطن الحقوق والواجبات كما لايليق به أن تدفعه الشهوات واللذات الى الاسراف فيه وانفاقه فى غير حقه فالحديث الشريف يشير الى ماقد تستلزمه الرغبة الشديدة فى المال من الشح به . أو التبذير فيه ويقول إنه ماخلق من أجل هاتين الحالتين وانما خلق لينفق فى الواجبات الدينية والانسانية التى يقرّها الدين . وكذلك يحذرنا الحديث عن كسب المال من طريق حرام ويلفتنا الى أنه لاينبغى أن يدفعنا حبه الى الشره وجمعه باى وسيلة ولو لم تكن شريفة مشروعة . فمن غلبه حب المال الى شئ من ذلك فيجب عليه أن يتوب ويندم ويعمل بما أمره الله به فان الله يتوب على من تاب . وأما الحديث الثانى فهو نص فى أن حب المال يستمر قويا فى الانسان حتى فى حال هرمه فان المرء يهرم وحب المال يبقى شابا فيه لايضعف ومثله طول العمر . وقول رسول الله ﷺ بيان لأمر طبيعى صحيح لاشك فيه والغرض منه لفت الناس الى مايترتب على ذلك الحب القوى والرغبة الشديدة من الخروج عن حدود الدين فلا يذهب به الى الشح والحرص والطمع وهى من الرذائل المذمومة فى نظر الدين وقد بينا لك مافى الشح من المفاسد والمضار . وأما الحرص على تحصيل المال فانه من أسباب هلاك المرء ونقصان مروءته فقد يقوده الحرص الى أن يلقى بنفسه فى المخاطر ويزج بها فى المآزق التى لايستطيع الافلات منها كأن يزين له الحرص التزوير . أو النصب والاحتيال فيوقعه فى العقاب الدنيوى والأخروى . أو يحسن له الغش والكذب أو يدفعه الى

مزاحمة من هو أقوى منه فيسعى فى هلاكه فضلا عما يستلزمه الحرص من الذل والخضوع لمن هو أدنى منه قدراً متى استطاع أن يأخذ منه درهما . وقد يفضى الحرص بالمرء إلى أن لايبالى بعرضه ودينه فى سبيل الحصول على المال وذلك نهاية الانحطاط وغاية الضعة وأن من يفعل ذلك لايصح أن يكون فى عداد الانسان بل هو إلى الحيوان أقرب شبها من الانسان .

وأما الطمع فصاحبه مرذول عند الناس ثقيل على أنفسهم محتقر مهان ناقص القدر والقيمة فى نظرهم لأنه يطمع فيما لاحق له فيه ويريد أن يزاحمهم فيما كسبوه بجدهم واجتهادهم وما كان له ان يقف وهم سائرون ويكسل وهم مجدون فذلك شر وبيل يجر إلى الفاقة والفقر والانصراف عن العمل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياكم والطمع فانه هو الفقر وإياكم وما يعتذر منه» أخرجه الطبرانى فى الأوسط فضلا عما يترتب على الطمع من الرذائل التى تترتب على الحرص كالذلة والهوان واسقاط المروءة وغير ذلك من رذائل الصفات فلا غرو إن حثت الشريعة الاسلامية على القناعة ونهت عن الحرص والطمع فقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « ليس الغنى عن كثرة العرض انما الغنى غنى النفس » متفق عليه . وقد تقدم فى مدح المال . فليس الغرض من الحياة أن يجمع الانسان المال من أى طريق مهما ترتب على ذلك من الضعة والانحطاط والذلة والهوان إنما الغرض من الحياة أن يعيش الانسان فيها كريماً لايسخر منه عظيم ولا يحقره غنى لتعففه عن الناس وتمسكه بالوسائل الشريفة فى جمع المال . وذلك أحسن الأدب وأفضل التربية وأجل النصائح لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

فالقناعة بما أتيح للانسان فى هذه الحياة من مال ومتاع هى خير مايحرزه من وسائل الكرامة والعزة وأفضل مايذخره ويكنزه ليستغنى عن الناس عند الحاجة ومن استغنى عن الناس فقد عز وعلا . قال عون بن مالك الأشجعى « كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال ألا تبايعون رسول الله ﷺ قلنا أو ليس بايعناك يارسول الله ثم قال ألا تبايعون رسول الله فبسطنا أيدينا فبايعناه فقال قائل منا قد بايعناك فعلى ماذا نبايعك قال أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وتصلوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا . وأسر كلمة خفيفة ولا تسألوا الناس شيئا قال فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط صوته فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه » ومعناه النهى عن سؤال الناس مالا يستحق . أما المعونة بالناس فى أمور الحياة فهو لازم متى كان بالوسائل المشروعة ولكن هؤلاء الذين بايعوا النبى ﷺ قد بالغوا فى تنفيذ بيعته عليه الصلاة والسلام واحتاطوا فى ذلك إلى أبعد مدى وهذا شأنهم رضوان الله عليهم فى الحرص على تنفيذ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم والتمسك به من جميع النواحى والجهات وقد ورد فى ذلك آثار كثيرة فلننقل لك منها شيئاً .

قال عمر رضى الله عنه إن الطمع فقر وإن اليأس غنى وإن من يئس مما عند الناس استغنى عنهم رواه هشام بن عروة عن أبيه . وكتب بعض بنى أمية إلى أبى حازم سلمة بن دينار الأعرج يعزم

عليه إلا رفع اليه حوائجه فكتب اليه قد رفعت حوائجى إلى مولاى فما أعطانى منها قبلت وما أمسك عنى قنعت . وقال عمر رضى الله عنه ألا أخبركم بما استحل من مال الله عز وجل جلبانى لشتائى وقيظى وما يسعنى من الراحلة لحجى وعمرتى — أى الراحلة التى يركبها ليحج عليها — وقوتى بعد ذلك كقوت رجل من قريش لست بأرفعهم ولا بأوضعهم ووالله ماأدرى أيحل ذلك لى أم لا . فقد حملته العفة والزهد فى أموال الناس إلى أن يشك فى ان هذا القدر زائد عن حاجته أم لا وليس بغريب أن يصدر مثل ذلك عن سيدنا عمر أمير المؤمنين رضى الله عنه . وقال أبو محمد اليزيدى دخلت على الرشيد فوجدته ينظر فى ورقة مكتوب فيها بالذهب فلما رآنى بسم فقلت فائدة أصلح الله أمير المؤمنين قال نعم وجدت هذين البيتين فى بعض خزائن بنى أمية فاستحسنتهما وقد اضفت إليهما ثالثا وأنشدنى .

إذا سد باب عنك من دون حاجة * فدعه لأخرى يفتح لك بابها
فان قراب البطن يكفيك ماؤه * ويكفيك سوآت الأمور اجتنابها
ولاتك مبذالا لعرضك واجتنب * ركوب المعاصى يجتنبك عقابها

أخرجه ابن أبى الدنيا فى أخبار الخلفاء وقال بعضهم :

إذا أعطشتك أكف اللئام سقـ * ـتك القناعة شبعاً وريا
فكن رجلا رجله فى الثرى * وهامة همته بالثريا
فان إراقة ماء الحيا * ة لدون أراقه ماء المحيا

وقال عبد الله بن سلام لكعب الأحبار مايذهب العلوم من قلوب العلماء بعد إذ وعوها وعقلوها قال الطمع وشره النفس وطلب الحوائج ومعنى ذلك أن تلك الصفات لاتجعل للعلم ثمرة فان الطمع وشره النفس وطلب الحوائج تجعل صاحبها أسيراً لمن يطمع فى ماله . أو يطلب منه حوائجه فيتبعه فى هواه حيث كان فلا يحفل بما يقتضيه الدين . ولا يبالى بما يوحى به العلم فيصبح العلم ضائعاً بضياع آثاره وثمراته إذ لافائدة للمعلومات التى يشغل بها الانسان رأسه اذا لم يعمل بما تقتضيه من نصرة الحق والفضيلة . وخذلان الباطل ومحاربة الرذيلة . وخدمة المجتمع الانسانى وتربيته تربية صالحة فهذا هو مايتطلبه العلم الصحيح وما يقتضيه الدين الحنيف . ولكن الحرص على المال والطمع فى لذات الحياة وزخارفها وشره النفس فى طلب الحاجات يقضى على ذلك قضاء مبرماً ويجعل العالم شراً من غيره لأنه يحاول أن يبرر موقفه فيقلب الحقيقة ويجعل الحق باطلا والباطل حقا وبذلك يكون حرباً على العلم والدين يهدم فيهما بمعاول الشره والطمع وحب المنصب والجاه والمال . وتلك هى فتنة المرء فى دينه ومروءته .

نسأل الله تعالى الوقاية من شرها إنه سميع الدعاء .

علاج انفاق المال فى غير حقه

بينا لك فى مبحث الشح أن الباحثين اختلفوا فى صفات النفس فمنهم من قال انها فطرية غير قابلة للزوال كصفات الجسم اللازمة مثل العمى والعور ونحوها . ومنهم من قال إن كل صفات النفس قابلة للزوال وأن الانسان فى هذه الحياة مستعد للانتقال من حسن إلى سيء ومن سيء إلى حسن . فانا نرى كثيراً من الناس ينتقلون من جبن إلى شجاعة ومن شجاعة الى جبن ويتحولون من بخل الى كرم ومن كرم الى بخل بحسب مايكتنفهم من العوارض والأحوال . الا أن بعض النفوس أكثر استعداداً لقبول الصفات من البعض فتتمكن منها . ويعسر زوالها وقد قدمنا لك مانراه فى هذا الموضوع هناك فارجع اليه إن شئت انما الذى نريد أن نقوله هنا هو أن الشريعة الاسلامية تدعو الناس جميعاً إلى مكارم الأخلاق وتحث كل فرد من أفراد المكلفين على التمسك بالفضائل واجتناب الرذائل وذلك يؤيد الرأى الثانى لأنه لافائدة من تكليف الأعمى بابصار النملة مادام العمى غير قابل للزوال كما لافائدة من تكليف الشحيح بالكرم مادام الشح غير قابل للزوال أيضاً وهكذا. ولا يصح أن يقال إن الشريعة جاءت بالتكاليف العامة بالنظر للغالب من أحوال الناس فاذا وجد من غير الغالب من كان مفطوراً على صفة لايمكن التحول عنها فهو غير معتبر فى التشريع . لاننا نقول إن كل فرد من الأفراد مأمور بالفضائل منهى عن الرزائل فلو كانت الرذيلة صفة طبيعية فيه فانه لايصح تكليفه بازالتها والعمل على غيرها . فمن أجل ذلك ينبغى للمسلمين أن يعالجوا أنفسهم من أمراضهم الباطنة وأن يتآمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر ويتواصلوا بالحق والصبر عملا بقول الله تعالى (والعصر انّ الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) .

ومعنى الآية الكريمة أن الله سبحانه أقسم بصلاة العصر — لما لها من الفضيلة وسمو المنزلة عند الله تعالى — ان الانسان لفى خسران فى مساعيه فى حياته الدنيا مادام لايتوسل بها الى السعادة الأبدية فلا ينفعه مال ولا تفيده لذة ولا تغنى عنه تجارة ولا غيرها من عذاب الله شيئاً الا المؤمنين الذين يؤمنون بالله ورسوله ويعملون الصالحات كما أمرهم الله تعالى ونهاهم فانهم هم الذين ربحوا فى تجارتهم وظفروا فى مسعاهم وهم الذين يوصى بعضهم بعضا بالحق قولا وفعلا فلا ينطق الواحد منهم الا بالحق ولا يحكم الا بالحق ولا يعامل الناس الا بالحق وعليه أن يغضب من أجل الحق

وان يبذل كل ما استطاع من جاه وسلطان لتأييد الحق وحد الحق هو الثابت الذى لا يصح انكاره فيشمل الايمان بالله تعالى ورسله وكتبه والأعمال الصالحة. وكذلك الذين يوصى بعضهم بعضا بالصبر عند المصايب حتى لا يستفزهم الجزع الى الخروج عن حدود الدين . والصبر على نوائب الزمان حتى يتغلبوا على حادثاتها فلا تلعب بدينهم ومروءتهم . والصبر على لقاء الأعداء الذين يريدون استذلالهم واستعبادهم . والصبر على شهوات النفس ولذاتها فلا تتغلب عليهم ثورتها فتقودهم الى ما تريده من المفاسد والموبقات. والصبر على علاج الصفات الذميمة التى علقت بالنفس كالشح والعجب والكبرياء وغير ذلك فان على المرء أن يعالجها حتى تبرأ نفسه منها وتتطهر من شرها . الى غير ذلك . كل هذا داخل تحت التواصى بالصبر وهو معنى التآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر وهو خير علاج لتفشى الذنوب والموبقات فان الصفة الذميمة لا تترتب عليها آثارها السيئة مادام الناس يتآمرون بالمعروف ويتناهون عن المنكر ولا يرضون عن المجرمين الذين يقترفون السيآت . ومن أجل ذلك لعن الله الذين لا يتناهون عن المنكر فقال تعالى (لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) الآية

فلو أن الناس تضافروا على استنكار الرذائل وتناهوا عن اقتراف المنكرات بتلوب صادقة وعزائم ثابتة لقضوا عليها قضاء مبرماً وأصبحت الفضيلة سائدة بينهم محببة اليهم . وانزوى المجرمون وأصحاب النفوس الخسيسة ولم يعد لهم أثر بينهم ولا وجود فى بيئتهم وذلك أحسن العلاج الذى كان المسلمون به مستمسكين فى أوائل أمرهم فلم يكن للرذيلة فيهم مقام ولأجل هذا مدح الله تعالى أمة محمد صلى الله عليه وسلم بقوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وسيأتى الكلام فى هذا فى مبحث الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ان شاء الله تعالى .

فالشحيح الذى لا ينفق على الحقوق والواجبات يجب على الناس أن ينهوه عن ذلك قولا وفعلا . فاما القول فان على المرشدين أن يبينوا له مضار الشح وآثاره السيئة فى المجتمع الانسانى وأن يفهموه أن الشح يأتى بعكس المطلوب له من الزيادة فى المال لأن الشحيح ينصرف الناس عن معونته فلا يقبلون على معاملته ولا يتعاونون معه فى تنمية ماله وأن يبينوا له أن الغرض من المال انما هو الانتفاع به فى هذه الحياة والا كان مثل الحجر الملقى على الأرض فانه نوع من الحجر جعله الله وسيلة للتعامل وقضاء الحاجات فليس من العقل أن يكنزه الانسان وهو محتاج اليه ويعيش فى هذه الحياة فقيراً محروما من لذائذها وطيبات رزقها ثم يكون فى الآخرة مسؤولا عن ماله معذبا على مافرط من أداء الحقوق والواجبات . وذلك هو الخسران المبين

فان كان قد اكتسب الشح من المعاشرة والمخالطة فيجب أن يزهدوه فى معاشرة الأشحاء ويرغبوه فى معاشرة الكرماء ومطالعة أخبارهم وشرح ما كسبوه من الحمد الخالد والثناء الدائم وما مدحوا به أمتهم من الانفاق على دور العلم وترقية الأخلاق . وغير ذلك مما يبقى ثوابه مستمراً وأجره لا ينقطع حتى بعد الممات .

وأما الفعل فانه يجب على الناس أن لايجاملوه فى أموره وأن يظهروا له الاشمئزاز من عمله وأن لاينزلوه فى معاملته منزلة الكريم . وأن يبالغوا فى احترام الكرماء وخدمتهم والحفاوة بهم فى حضرة الشحيح كى تبعثه الغيرة الى الاقتداء بهم والتخلق بأخلاقهم وقد تكون التربية بذلك من أحسن ماينفع ويفيد . وما قصة الثلاثة الذين خلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ بخافية على أحد فلقد عوقبوا بمقاطعة اخوانهم اياهم مقاطعة تامة فى كل أمر من أمورهم حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم . ثم تاب الله عليهم كما قصه الله تعالى فى كتابه العزيز .

أما المبذر الذى ينفق المال فى غير حقه فانه يجب أن يحذره المرشد عاقبة الاسراف والتبذير من افلاس يقوده الى الاحتياج الى الناس ويذهب به الى المذلة والهوان . ويزهده فى الشهوات التى لانتيجة لها الا القضاء على صحته وكرامته . وان كان الاسراف حاصلا عنده من المعاشرة والمخالطة فانه يجب عليه أن يزهده فى معاشرة المبذرين الذين لاهم لهم الا القضاء على أنفسهم وأموالهم فى سبيل الشهوات واللذات وأن يضرب له الأمثال بمن قضى الاسراف على مجدهم وكرامتهم فأصبحوا أذلة بعد أن كانوا أعزة وعبيداً بعد أن كانوا سادة وان فى ذلك لأكبر زاجر للنفوس عن تقليد المترفين فى ترفهم والاقتداء بهم فى التوسع فى المأكل والمشرب والمسكن ومباراتهم فى اللذات والشهوات بدون حساب لما يترتب على ذلك من نفاد المال والرجوع الى شظف العيش وذل الحاجة وربما لايجد بعد ذلك قوتاً ضروريا فيصبح بائسا يتكفف الناس أو يصبح عالة على غيره وقد تدفعه تلك الحالة الى الهلاك كما وقع لبعض من لاخلاق لهم ولا عزيمة عندهم . فان التوسع فى الشهوات قد أفضى بهم الى الافلاس فكبر عليهم الرجوع الى خشونة العيش وشظفه فقتلوا أنفسهم ظلما وعدوانا ظنا منهم أن القتل يريحهم من التعاسة والشقاء وهؤلاء يكادون يكونون غير مؤمنين لأنهم لو استيقنت أنفسهم الدار الآخرة واطمأنوا لها لعلموا أن الانتقال اليها على هذه الحالة انما هو انتقال الى شقاء دائم وعذاب أليم لايقاس عليه شيء من بؤس الدنيا وشقاؤها مهما اشتدت أمره وزاد خطره فينبغى لمن وقع فى تلك المصيبة أن يقابلها بالصبر والشجاعة وأن يحتمل مايترتب عليها من خشونة العيش وبؤس الحياة وأن يرجع الى الله تعالى ويتوب مما كسبت يداه وأن يوطن نفسه على أن يعمل كل مايتاح له عمله فى هذه الحياة مادام ذلك العمل مشروعا . فلعل الله تعالى يحدث بعد ذلك أمراً . وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيآت . (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب)

شهوة الذرية

لاريب فى ان الانسان مفطور على حب البقاء بل البقاء الذ شئ لديه ولكنه يعلم انه هالك لامحالة وأنه لابد لوجوده من نهاية ينتهى اليها سواء أكانت قريبة أم بعيدة وذلك ما يحزنه ويكدر صفوه فى هذه الحياة فمن اجل ذلك اقتضت حكمة الله تعالى ان يجعل له فى نسله وذريته بعض العوض عن ذلك فانه يرى بقاءه مستمرا فى ولده فلا يندم على جهاده فى معترك الحياة ولا يأسف على مابذله من مجهود فى ترقية العمران . ولا يحزن على مفارقة ماحصل عليه بكده من مال ومتاع لأنه يعلم أنه تركه لولده وهو جزء منه فكأنه هو الذى يستمتع به وكأنه باق لم يدركه الفناء تلك نظرية بديهية يجدها فى نفسه الذكى والغبى ويدركها العالم والجاهل فالكل يحب الولد لأنه يرى فيه بقاءه مستمرا ويعلم أنه خليفته فى هذه الحياة الدنيا وان كان بعض الناس لايحسن التعبير عن ذلك

وأيضا فان كل واحد يشعر بحاجة الى معين مخلص يحمل عنه بعضا من متاعب الحياة وأعبائها ويكون عدته عند نوائب الزمان ومحن الايام ومن عساه أن يكون احق من الولد وأجدر بثقة الوالدين . فشهوة الذرية وحب الولد وان كانت عواملهما تتفاوت عند بعض الناس ولكنها من أقوى الشهوات عند المجتمع الانسانى من حيث هو فمن اجل ذلك يقول الله تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين) كما ذكرناه لك آنفا

واذ قد علمت ذلك فاعلم ان هذه الشهوة هى كسائر الشهوات تارة تكون ممدوحة وتارة تكون مذمومة فاما المذمومة منها فهى ان يفتتن المرء باولاده وذريته فلا يبالى ان يرتكب من اجلهم الجرائم ويقترف بسببهم الموبقات والآثام. يشتهى الأولاد والذرية من اجل ان يجمع لهم مالا حراما ويظلم خلق الله ويستسهل فى سبيلهم الفسوق والعصيان. يشتهى الأولاد وهو لايقدر على تربيتهم تربية صالحة فيذرهم اعضاء عاطلين يضرون المجتمع الانسانى ويؤذون الناس بشرهم . يشتهى الأولاد ولكنه لايعدل بينهم فيفضل ذكورهم على اناثهم او يفضل بعض ذكورهم على بعض مع ان النبى ﷺ رغب فى المساواة بين الذكور والاناث فى المعاملة فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ انه قال «من كانت له انثى فلم يئدها — يدفنها حية كما كان يفعل فى الجاهلية — ولم يهنها ولم يؤثر ولده — يعنى الذكور — عليها أدخله الله الجنة » رواه ابو داود والحاكم وقال الحاكم صحيح الاسناد وبالجملة فان شهوة الأولاد اذا كانت تفضى الى المظالم وانتهاك الحرمات وتعدى حدود الله تعالى فهى شهوة مذمومة وفتنة شديدة والى ذلك الاشارة بقوله تعالى (انما اموالكم واولادكم فتنة)

واما الممدوحة منها فهى ان يشتهى الأولاد ليكمل بهم نظام العمران وينتفع بهم المجتمع الانسانى فيعلمهم العلم النافع ويربيهم على الأخلاق المرضية التى تنتج ذلك الغرض الجليل ويستعين بهم على عمل البر والخير فينتفع بهم فى حال حياته ويكون بقاؤه مستمرا فيهم بعد وفاته فلا ينقطع ثواب عمله كما قال عليه الصلاة والسلام «اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث» فذكر منها ولدا صالحا يدعو له وبالجملة فشهوة الأولاد الممدوحة هى التى تفضى الى الخير ونفع المجتمع الانسانى وبناء العمران ولهذا رغب النبى ﷺ فى نكاح الولود ونهى عن نكاح العقيم فقد روى عن معقل بن يسار رضى الله عنه قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم «فقال يارسول الله انى أصبت امرأة ذات حسب ونسب ومال الا أنها لاتلد افأتزوجها فنهاه ثم اتاه الثانية فقال له مثل ذلك ثم أتاه الثالثة فقال له تزوجوا الودود الولود فانى مكاثر بكم الأمم» رواه ابوداود والنسائى والحاكم واللفظ له وقال صحيح الاسناد

تربية الأولاد

تربية الأولاد فرض لازم لايصح اهماله فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال «الزموا أولادكم وأحسنو أدبهم» رواه ابن ماجه

فهذا الحديث يأمر بمراقبة الأولاد مراقبة دقيقة وتاديبهم احسن الأدب فواجب دينا على الوالدين أن يقوما بتلك المراقبة كل واحد منهما بدوره فى داخل المنزل وخارجه فيمرناه على القدر النافع له من الشهوات ويحببا اليه العمل الصالح بقدر مايستطيع ادراكه . وأول مايغلب على الصبى شهوة الطعام والشره فى الأكل فمن الضرورى أن يراقباه فى ذلك مراقبة دقيقة ويمرناه على الغذاء القليل الذى لايضر معدته ويحولا بينه وبين تناول كل مايشتهيه من اصناف الطعام المختلفة التى لا تستطيع المعدة هضمها فيتعرض بذلك للآلام والامراض ويشب على الشره وكثرة الأكل فيتعلم الكسل والبلادة ويكون همه بطنه وقد نهى الدين عن ذلك كما تقدم لك فى الكلام عن شهوة البطن . وكذلك ينبغى مراقبته عند مايراهق فلا يسمح له بمصاحبة الأشرار ومخالطة الفجار فاسدى الأخلاق وناقصى التربية كما لايسمح له بغشيان دور الفساد ومحال اللهو والخلاعة والمجون ويحبب اليه العمل لدينه ودنياه بحيث يصرف كل همه الى تعلم العلم النافع وما يلزم له فى قوام حياته من صناعة وزراعة وتجارة وأن يؤدى الفرائض الدينية ولا يهمل شيأ منها ويجب أن يترك له وقت يروض فيه نفسه حتى لايسأم العمل وأن يغضى عما يفرط عنه من بعض المخالفات التى لاتضر بالأخلاق اذا فعلها خفية وكان يخجل من اظهارها على ان يكون كل تأديبه بالترغيب والحجة المناسبة لعقله فيفهم ان العمل النافع ينفعه فى حياته الحاضرة والمستقبلة وتضرب له الامثال بالعاملين النافعين الذين رفعهم العمل الى الدرجات الرفيعة وبالجهلة وفاسدى الاخلاق الذين ساء حالهم بسبب ذلك وانحطوا الى الدرك الاسفل ويرغبه فى أن يكون مثل الاولين ويحذره عن ان يكون مثل الآخرين ومما يجب التنبه له انه يجب على الوالدين

أن ينفذا الخطة الصالحة التي يرسماها لاولادها عمليا بأن يلزموها فى تنفيذها ملازمة تامة كما يشير الى ذلك الحديث الشريف فانه عليه الصلاة والسلام يقول الزموا أولادكم .فلا يكفى مجرد الترغيب بالقول وضرب الامثال. أما الضرب والتخويف فقد ينتجان عكس المطلوب ويتركان أثرا سيأ فى نفس الولد يصرفه عن المقصد النافع ويزهده فى عمل البر ويجعله حريصا على مامنع عنه من الفساد فيلح فى طلبه وينتهز الفرص ليعمله خاسة فضلا عما يتركه الضرب والتخويف فى النفس من الجبن والخيالات الفاسدة التى قد تصاحب الانسان فى حال كبره أيضا فيشب على الجبن والخوف من الخيالات الكاذبة وقد تتأثر أعصابه بتهيج كاذب من غير فائدة تعود على التربية والأخلاق وذلك شر ووبال نعم اذا تاكد المربى من أن طبيعة التلميذ لاتصلح الا بالزجر والتخويف فانه يصح أن يستعمله فى الموضع المناسب له بحيث لايفرط فيه فتترتب عليه تلك الآثار السيئة وبالجملة فالمربى كالطبيب الماهر الذى يعرف العلة ويصف لها مايناسبها ولكن لابد من المراقبة الفعلية والملازمة العملية التى يشير اليها الحديث على أى حال

فاذا بلغ الغلام حد شهوة الفرج فيجب على والديه أن يحولا بينه وبين عناصر الفساد ومايثير هذه الشهوة ويراقباه فى ذلك مراقبة دقيقة فان هذه الشهوة من اشد الشهوات خطرا وأبعدها اثرا إذ قد تقضى على مستقبل الشباب وتفسد عليهم حياتهم المادية والأدبية وتوردهم موارد الهلكة لانها تعرض أبدانهم للأمراض المادية وعقولهم للأمراض المعنوية وفى ذلك بلاء مبين . وأحق علاج تعالج به تلك الحالة هو القيام بعمل الواجب الذى تقوم عليه حياة الشاب فى مستقبله وصرفه عن كل مايثير تلك الشهوة ويهيجها من مكمنها فاذا درج على ذلك سهل عليه قطع ذلك الدور آمنا على صحته وعقله والا فقد يقع فى أشد البلاء وأصعب الأخطار

شهوة الجاه والسلطان

هذه شهوة طبيعية فى الانسان فهو مفطور على أن يكون ذا جاه محبب اليه أن يكون ذا سلطان يطاع ان أمر أو نهى ويسيطر على قلوب الناس ويستولى عليهم فى كل الأمور ولقد علمت مما تقدم أن الانسان متصف بصفات الربانية لأن روحه أمر ربانى كما وصفها الله تعالى بقوله (قل الروح من امر ربى) ومعنى كونها ربانية أنها سر من الأسرار التى لايقيسر الوقوف على حقيقتها فهو من هذه الجهة يميل بطبيعته الى العظمة والكبرياء وحب الجاه والسلطان . وهل شهوة الجاه اقوى أو شهوة المال . والجواب أن التفاضل اذا كان بينهما فى ذاتهما فما لاشك فيه أن شهوة الجاه أقوى من شهوة المال لان المال فى ذاته كالحجر لايضر ولا ينفع أما اذا كان التفاضل بينهما باعتبار الافراد الذين يتصفون بهما فذلك ينبغى أن يكون فيه تفضيل وذلك لان شهوة الجاه وان كانت طبيعة فى الانسان كما ذكرنا ولكنها تتفاوت عند الافراد بالقياس الى شهوة أخرى فمن الناس من تتحقق عنده هذه الشهوة باقوى معناها وهذا الفريق هو الذى يفضل عنده حب الجاه على حب المال لان شهوة الجاه عنده هى الباعثة له على

حينئذ . ومن الناس من يقدس المال فى ذاته كما هو الحال عند البخلاء الذين يكنزون الذهب والفضة ويحرمون أنفسهم وأهليهم متاع الحياة الدنيا والطيبات من الرزق حتى انك ترى أحدهم يلبس الخلق من الثياب ويطوى من الجوع ويعرض نفسه لكل مذلة ومهانة واحتقار من أجل دريهمات يسيرة مع كونه ذا مال كثير وقد اسلفنا لك ذلك فى الكلام على شهوة المال

وأيضا فقد ينصرف المرء عن شهوة المال والسلطان لشغفه بشهوة أخرى تعارضها كما إذا منى بالشغف بشهوة الفرج فانها قد تفضى به إلى الذلة والهوان والخضوع إلى من يشتهى وقاعها ولو ذهب كل سلطانه وضاع كل جاهه وقد يترك ملكه خضوعا لتلك الشهوة فالتفاضل بين الشهوات الطبيعية يختلف باختلاف طبائع الناس واستعدادهم للتأثر بها. فمنهم من يغلب عليه حب المال. ومنهم من يغلب عليه حب الجاه . ومنهم من يغلب عليه حب النساء . ومنهم من يغلب عليه شره الطعام . ومنهم من يغلب عليه حب الزينة واللباس والتطاول فى البنيان وهكذا . وقد يستدل على كون الجاه أحب من المال بأن التوصل إلى المال بالجاه أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه . ألا ترى أن الرجل العظيم الذى يسيطر على القلوب ويكون له مكانة فيها يتيسر له أن يجمع المال بسهولة لأن القلوب تبذل المال لمن تعتقد فيه الكمال عن طيب خاطر أما الرجل الدنئ الخسيس الذى يعثر على كنز مثلا فانه لا يتيسر له بالمال أن يسيطر على النفوس وتكون له مكانة فى القلوب. وذلك الدليل ينتج إذا كانت البيئة صالحة تقدر الفضيلة وتحقر الرذيلة أما إذا فسدت البيئة وأصبح الانسان عبدا للمادة فان صاحب المال يكون له الجاه والسلطان وقد يستدل لذلك بأدلة أخرى خطابية لا حاجة لذكرها

إذا علمت ذلك فاعلم أن شهوة الجاه والسلطان اذا اتجهت النفوس اليها ولم تعارضها شهوة أخرى كانت من أقوى الشهوات وأبعدها مدى لأنها لا تقف عند حد ولا تنتهى عند غاية فان صاحبها يشتهى أن يمتد سلطانه وينبسط نفوذه ويسرى جاهه فى كل واد وعلى أهل كل قطر حتى ولو لم يذهب اليه فى حياته لما علمت من أن النفس نزاعة إلى حب السلطة والجاه بطبيعتها .

ولا ريب فى أن شهوة الجاه كغيرها من الشهوات تارة تكون ممدوحة وتارة تكون مذمومة . فأما الممدوحة منها فهى أن يحب الجاه ليكون ذا تأثير على قلوب الناس فيما يصلح حالهم فى الدنيا والآخرة فيأتمرون إذا أمرهم بمعروف وينتهون إذا نهاهم عن منكر لا يحب ذلك إلا الله تعالى وابتغاء رضوانه لا يدفعه لذلك سمعة أو رياء ولا يسوقه اليه حب مدح الناس أو كراهية ذمهم فان من يتأثر فى أعماله بالناس يكون تابعا لأهوائهم فيها ومن المحال أن يكون الحق تابعاً لأهواء الناس وشهواتهم. فالجاه الممدوح هو ما يترتب عليه نصرة الدين وصلاح نفوس المسلمين وما يقصد صاحبه بكل أعماله مرضاة الله رب العالمين .

ومن ذلك حب الرئاسة والحكم فان من أحب شيئا منهما ليقيم العدل بين الناس وينصر الحق فى كل مواطنه ولا يغتر بسلطة فيتكبر على الناس ويحقرهم ويطغى عليهم بل يجعل كل همه فى عمل الاصلاح الذى يرضى عنه ربه ويسعد به خلق الله الذى سخره لخدمتهم وأكرمه بالعقل الراجح عليهم فان ذلك يكون ممدوحا فى نظر الدين . وقد وردت أحاديث كثيرة فى مدح الحاكم العادل

منها ماروى عن عياض بن حماد رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول « أهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط موفق ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى مسلم وعفيف متعفف ذو عيال » رواه مسلم — والمقسط هو العادل — ومعنى الحديث واضح فيما ذكرنا لأنه صريح فى مدح صاحب السلطان الذى يعدل بين الناس ووعده بالجنة التى وعد الله بها عباده المتقين .

ومنها ماروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أفضل الناس عند الله منزلة يوم القيامة إمام عادل رقيق وشر عباد الله عند الله منزلة يوم القيامة إمام جائر خرق » رواه الطبرانى فى الأوسط . ومنها ماروى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ « أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر » رواه الترمذى والطبرانى . وغير ذلك كثير من الأحاديث الواردة فى حث كل ذى سلطان على العدل واستعمال سلطته فيما ينفع الناس ويصلح حالهم فكل ذى جاه أو سلطان يستعمل سلطانه وجاهه فى سبيل الخير كما ذكرنا يكون له على ذلك أحسن المثوبة وأفضل الجزاء .

وأما المذمومة من شهوة الجاه والسلطان فهى ما كان على العكس من ذلك لايقصد منها خدمة المجتمع ولا إصلاح الدين وانما يقصد بها خدمة شهواته وسد أطماعه والناس فى ذلك مختلفون . فمنهم من يكون همه الاستيلاء على القلوب بأى وسيلة من الوسائل سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة فينتحل لذلك الصفات التى من شأنها جذب القلوب والتأثير على النفوس كذبا وزوراً فطوراً يظهر لهم بمظهر العابد المقرب من الله تعالى المحبوب منه فاذا دعاه أجابه وإذا استعان به أعانه وأنه هو خير وسيلة بين الناس وبين الله فى قضاء الحاجات وإجابة الدعوات . وطوراً يظهر بمظهر الزعيم الذى يتحرق قلبه أسفاً على مصالح العباد والغيور الذى تكاد تذهب نفسه حسرات من أجل صلاحهم وإسعادهم . وطوراً يظهر بمظهر العليم الذى يعرف مخبآت الأمور . وخفايا الأسرار . وان الله قد اختصه بمزايا الأولياء والصالحين والعلماء العاملين إلى غير ذلك من الصفات التى تتأثر بها القلوب وتركن اليها النفوس وهو فى الواقع خال من كل فضيلة ولا همّ له إلا اصطياد القلوب ليسخرها فى شهواته وينتفع بها فى لذاته . ومثل هذا الفريق من الناس شر عظيم على المجتمع الانسانى وعدو مبين للانسانية لأن همه يكون منحصراً فى المحافظة على جاهه الباطل فيسوقه ذلك إلى اتباع الناس فى أهوائهم التى لايقرها عقل ولا يرضاها دين كى لاينفضوا من حوله فيزين لهم الباطل ويشوه لهم الحق ويقرّهم على الحرام ويقبح لهم الحلال يفعل كل ذلك وهو عالم به ولكنه يخشى على جاهه أن ينصرم وعلى سلطانه أن يزول . وفى ذلك بلاء عظيم على نفسه وعلى خلق الله الذين أضلهم عن سبيل الحق وأقرهم على الباطل وزين لهم أهواءهم وافسد عقولهم وذلك هو الخسران المبين .

لذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إرضاء الناس بما يسخط الله عز وجل نهياً شديداً فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « من أسخط الله فى رضا

الناس سخط الله عليه وأسخط عليه من أرضاه فى سخطه ومن أرضى الله فى سخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه من أسخطه فى رضاه حتى يزينه ويزين قوله وعمله فى عينه » رواه الطبرانى باسناد جيد قوى . وروى عن عبد الله بن عصمة بن مالك قال قال رسول الله ﷺ من تحبب إلى الناس بما يحبوه وبارز الله تعالى لقى الله تعالى يوم القيامة وهو عليه غضبان » رواه الطبرانى

فكل من يخاف على جاهه وسلطانه فيحيد عن الحق ويتبع الناس فى أهوائهم فهو داخل تحت ذلك الوعيد الشديد

وهناك فريق من الناس يكسبون الجاه والسلطان بصفات حقيقية فيهم من علم أو صدق غريمه أو حسن تدبير او شرف نسب أو نحو ذلك ولكنهم يحبون الجاه والسلطان ليكون لهم بذلك منزلة فى النفوس تحفظ لهم أنفسهم وأهليهم من الضيم واعتداء المعتدين ويسهل لهم قضاء مايحتاجون اليه من ضروريات الحاجات بدون أن يكون لهم غرض فى خدمة المجتمع الانسانى أو استعمال ذلك الجاه فى نصرة الدين .أو تأييد الفضيلة . أو انقاذ المظلومين . أو إغاثة المكروبين إلى غير ذلك من الأمور التى يمدح من أجلها الجاه والسلطان . وهذا الفريق إذا دعت ضرورة دينية إلى استعمال جاهه كأن رأى منكراً عليه أن يغيره بجاهه فلم يفعل فهو بذلك آثما فاسقا . وكذلك إذا توقف على جاهه إغاثة ملهوف . أو إعانة مكروب . أو إنقاذ إنسان من الهلاك ونحو ذلك فلم يفعل فانه يكون يكون آثما مذموما . فقد قال رسول الله ﷺ « مامن قوم يعمل فيهم بالمعاصى ثم يقدرون على أن يغيروا ثم لا يغيروا الا يوشك أن يعمهم الله بعقاب » رواه أبو داود وغيره ومثل ذلك كثير فى السنة الصحيحة وسيأتى فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . أما الأحاديث الواردة فى إغاثة الملهوفين وقضاء حوائج المسلمين فهى أكثر من أن تحصى . وسيأتى ذكرها فى موضعه . ونذكر منها هنا ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « مامن عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه ثم جعل من حوائج الناس اليه فتبرم فقد عرض تلك النعمة للزوال » رواه الطبرانى باسناد جيد .

أما إذا لم تدع ضرورة إلى استعمال جاهه ولم يكن عنده ميل إلى استعماله فذلك وإن لم يكن آثما فاسقا ولكنه فاسد الطبع غليظ القلب ناقص المروءة لأنه يمكنه أن يربح خيراً كثيراً عند الله تعالى ولكن طبيعته الفاسدة أبت عليه ذلك وحرمته ذلك الخير الكثير والثواب الجزيل .

﴿ وبعد ﴾ فانك تعلم مما تقدم لك أن طباع الناس متباينة فى حب شهوة الجاه والسلطان وأن أغراضهم متفاوتة فيه وأن منه ماهو ممدوح نافع وهو ما كان لله وخدمة المجتمع ومنه ماهو مذموم ضار وهو ما كان لسد المطامع وتحصيل الشهوات فواجب العقل بازاء ذلك أن يكون قواما على تلك الشهوة فلا يتركها تطغى عليه فينساق أمامها إلى حيث توردة مواردالهلاك وتوقفه مواقف الفساق بل ينبغى أن يتبع منها ما كان فيه صلاح دينه ودنياه ويتجافى ما كان فيه فساد ذلك فاذا وجد منها جموحا وعدم انقياد له فلا ينهزم أمامها بل عليه أن يذكرها دائما بالفناء الذى هو من

ضروريات الانسان فليس من العقل أن يعذب عذابا طويلا من أجل شهوة فانية تنقضي سريعا . وليس من الحكمة أن يترك النعيم الدائم من أجل لذة سريعة الزوال .

ويضرب لها الأمثال بمن عظم جاهه وامتد سلطانه وقويت شوكته واشتدت صولته ثم لم يلبث أن أصبح عظاما نخرة وترابا يطؤه الناس بأرجلهم ولم يبق له فى الوجود ذكرى بل محيت ذكراه واندرست آثاره حتى كأنه لم يوجد فى الحياة الدنيا ولم يكن له شأن فيها . فمهما بلغ المرء من الجاه والسلطان فانه لابد أن يفنى كما فنى غيره و يهلك كما هلك من كان أكثر منه قوة وأشد بطشا وأنه لابد أن يقف بين يدى أسرع الحاسبين وأحكم الحاكمين ويحاسب على مافعل بجاهه وسلطانه ويسأل عما قدمت يداه من خير وشر ثم يجزى الجزاء الأوفى من نعيم خالد وعذاب أليم . وبذلك يمكنه أن يقف مع تلك الشهوة وقفة حكيمة حازمة فلا يذرها تطغى عليه فتورده موارد الهلاك والردى وتوقعه فى أشد المحن والأرزاء خصوصا اذا كان يعلم بما يحيط بها من البلوى وما يكتنفها من المصائب والأهوال .

فان صاحب الجاه والسلطان لايفارقه الوجل والخوف على زوال جاهه ونقصان سلطانه فهو فى فزع دائم وقلق مستمر كلما أحس بانصراف القلوب عنه تكدر عيشه وزاد بلاؤه وهمه فهو دائما بين هواجس نفسانية لايستطيع الافلات منها وعوامل وهمية تصور له المحال فيذعن لها ويصدقها .وعلى الحقيقة ان من افتتن بحب الشهوة وغرامها كان جديراً بان يرثى له ويشفق عليه والا فماله وللظهور الذى يكلفه عناء ويحمله بلاء . ماله وللجاه الذى يطلب منه أن ينافق للناس اذا كان النفاق يرضيهم ويزين لهم أهواءهم الباطلة اذا توقف على ذلك استمرار عقيدتهم فيه . ويفعل مايخالف اعتقاده اذا ترتب عليه دوام القلوب معه بل ماله وللسلطان الذى يكدر من أجله صفوه وينغص عليه عيشه ويحمله من الهموم والأثقال ماتنوء تحته الجبال . وأخيراً يعذب عليه عند الله تعالى عذابا أليما . لاريب فى أن ذلك هو الخسران المبين والبلاء العظيم .

أما الذى يطلب الجاه والسلطان ليصلح بهما حال المجتمع الانسانى وينصر بهما الحق فى كل مواطنه ويؤيد بهما دين الله تعالى فذلك هو الذى يظل مطمئن القلب قرير العين لايرضى الناس ويغضب الله ولا يحفل الا بالحق ولا يعنيه الا الاصلاح وسواء عليه أن يزيد جاهه أو ينقص سلطانه مادام فى ذلك رضى الله تعالى وصلاح عباده.ومن تأمل فى الأمرين يجد أن الأول تره ضعيف النفس لاينظر الا للذة فى ذاتها فيخسرها فى الدنيا والآخرة . وأما الثانى فانه حازم ذو عفة ونزاهة نفس لاينظر الا الى مايترتب على شهوته من المصلحة العامة فينعم بالا فى الدنيا والآخرة وينعم باللذة التى يريدها على وجهها الأكمل والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

حب المدح وكراهة الذم

ويتبع حب الجاه والسلطان حب المدح وكراهة الذم وحب الظهور وكراهة الخمول وتلك صفات طبيعية فى الانسان أيضا فانه مفطور على أن يحب الكمال فكلما يجعله كاملا فى أعين الناس يكون محبوبا لديه فهو يحب أن يكون كاملا فى خلقه كاملا فى دينه كاملا فى دنياه ظاهراً بين الناس بكل هذه المظاهر لأنه يحب أن يمدحوه ويرضوا عنه ويبجلوه وكل ذلك يتبع فى الحقيقة حب الجاه والسلطان لأنه انما يفعل ذلك ليسيطر على قلوب الناس ويهيمن عليها فيصبح ذا جاه بينهم وسلطان عليهم وهذا نهاية ماتصبوا اليه الأنفس بطبيعتها التى خلقها الله عليها لما فيها من صفة الربانية التى تقدم بيانها

وقد علمت أن شهوة الجاه والسلطان تارة تكون صالحة وتارة تكون فاسدة باعتبار مايترتب عليها من الآثار وما يكتنفها من الأغراض . وكذلك مايتبعها من حب المدح وكراهة الذم وحب الظهور وكراهة الخمول

فان كان لغرض شريف وغاية حسنة كان ممدوحا والا كان مذموما مثلا . ان كان يحب المدح بالحق ليتوسل به الى الاستيلاء على قلوب الناس والسيطرة على أنفسهم ليصلح الفاسد ويقوّم المعوج ويسلك بهم سبيل الرشاد وطريق الهداية فذلك ممدوح وكذا اذا كان يحب المدح على الصفات الحسنة ابتهاجا بتقدير الناس للفضيلة ورضاهم عنها وسخطهم على الرذيلة ومحافاتهم اياها لتحيا الفضيلة وتموت الرذيلة بينهم فان ذلك يكون ممدوحا . وكذا اذا كان يحب المدح على الفضيلة ليكون فيها قدوة حسنة للمقتدين ومثالا صالحا للعاملين فان ذلك يكون ممدوحا وهكذا أما اذا كان يحب المديح سواء أكان بحق أم لا ولا غرض منه الا أن يكون عظيما بين الناس ليستخدمهم فى شهواته ويستعين بهم على لذاته ولو أفضى ذلك الى الاصطدام بالدين والأخلاق الكريمة كما بيناه لك فى الفصل الذى قبل هذا فان ذلك يكون مذموما أسوأ الذم وبالجملة فالمدار فى كل هذا على نية المرء وأغراضه الباطنية كما قال رسول الله ﷺ « انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ مانوى » فمن كانت نيته صلاح حال المسلمين وارشادهم ونصرة الدين كان له أجر على كل مايوصله لهذا من جاه وسلطان ومدح وظهور ومن كانت نيته تحصيل شهوة أو قضاء لذة أو سد مطمع كان عليه وزر فى كل مايتوسل به الى ذلك . وعلامة ما كان لله تعالى أن لايبالى صاحبه بالناس فى

مواطن الحق فلا يوافقهم على باطل ولا يعينهم على فساد سواء رضوا أو غضبوا وسواء مدحوه أو ذموه ويكون شعاره دائما مرضاة الله تعالى ونصرة الحق والدين. ويعجبنى ما قاله بعض الصوفية فى ذلك

فليتك تحلو والحياة مريرة * وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر * وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين * وكل الذى فوق التراب تراب

نسأل الله تعالى أن يصلح أنفسنا ويهدينا الى سواء السبيل انه واسع الفضل والجود

الرياء

ومما يتبع شهوة الجاه والسلطان الرياء فى عبادة الله تعالى وهو من الأمراض النفسية الخطرة والأوباء الاخلاقية الضارة التى تحتاج الى علاج دائم ويقظة مستمرة فلا يصح للمرء أن يغفل أمره حتى يستفحل شره ويتفاقم خطره ويصبح داء مستعصيا يحبط الاعمال ويعرض صاحبه للشرك بالله الواحد القهار

وهو مأخوذ من الرؤيا لان المرائى يرى الناس — يظهر لهم خصال الخير من العبادة حبا لحمدهم وفرارا من ذمهم — كى يستولى بذلك على قلوبهم فيكون له سلطان عليهم يصل به الى لذاته ويستعين به على تحصيل شهواته . فهناك أمور خمسة . مراء . وهو العابد الذى يظهر خصال الخير . ومراءى وهم الناس الذين يظهر لهم ذلك . ومراءى به وهى تلك الخصال ومراءى لاجله وهو الجاه والسلطان وحب الحمد وكراهة الذم . ورياء وهو قصد اظهار العبادة لذلك الغرض وكما أن الجاه يطلب باظهار العبادة للناس فقد يطلب بغيرها كما تقدم . إلا أن طلبه بالعباده خص باسم الرياء عادة والمراؤن بالعبادة أقسام

﴿ القسم الأول ﴾ المراؤن بالعقائد الدينية وهم الذين يظهرون للناس أنهم موحدون يشهدون أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وهم يعتقدون خلاف ذلك . او يظهرون لهم أنهم يؤمنون بالغيب من جنة ونار وملائكة ونحو ذلك مما هو معلوم من الدين بالضرورة وهم يعتقدون غير ذلك ولا ريب فى أن ذلك كفر يخلد صاحبه فى نار جهنم وهو المنافق الذى ورد ذكره فى غير موضع من القرآن

الكريم . قال تعالى (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها)الآية . وقال تعالى (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزؤن) الى غير ذلك من الآيات الواردة فى المنافقين ولقد كان النفاق فى التوحيد كثيراً فى مبدإ الاسلام اما الآن فان النفاق يكثر فيما دون ذلك فانك ترى كثيراً من الناس يذهب بهم قصر النظر وضعف الادراك الى عدم الايمان بكثير من الغيب كالجنة والنار والملائكة ثم هم يخفون عقيدتهم هذه ويظهرون امام الناس بضدها خوفا من ذمهم وطمعا فيما عندهم فاذا ماسنحت لهم فرصة لاعلان عقيدتهم لم يتأخروا عن المجاهرة بها وهؤلاء كفرة منافقون لأنهم يعتقدون خلاف ماهو معلوم من الدين بالضرورة وهو كفر ونفاق . والرياء فى العقيدة على ذلك الوجه من أكبر درجات الرياء وأشدها أثرا . وهناك أقل من ذلك درجة كاعتقاد بعض الامور الشاذة التى تضر بالدين وتورث سوء الظن فى عبادة المسلمين كاعتقاد بطلان الفروع الفقهية وضعف ادراك ائمة الدين الذين اجتهدوا فى استنباطها ويعتقد جهلا وغرورا أنه أرقى منهم ادراكا وأدق منهم نظرا فى كتاب الله وسنة رسول الله ومع ذلك فانه يظهر امام الناس بانه يقلد مذهبا من تلك المذاهب التى يعتقد بطلانها خوفا من ذمهم وطمعا فيما عندهم . وهذا وان كان أهون من الأول الا أن صاحبه منافق جبان مغرور يستحق العقاب على كل هذا

﴿القسم الثانى﴾ المراؤون بالفرائض الدينية والاركان الشرعية وهؤلاء هم الذين يفعلون اركان الدين من صلاة وصيام وزكاة وحج أمام الناس من اجل غرض من الأغراض التى ذكرت آنفا فاذا ما خلا الواحد منهم بنفسه لم يعمل شيئا فلولا الغرض الذى يريد تحقيقه ما صام ولا صلى ولاحج ولا زكى. وأقبح أنواع الرياء مافعل للحصول على لذة محرمة كأن يحتال به على الفسق بامرأة أو غلام أو يستعين به على سلب مال ظلما وعدوانا . أو يتوسل به الى ايذاء برىء فى عرضه أو ماله او دينه ومن يفعل هذا فهو وان كان مسلما فى ظاهر أمره الا أن الاسلام برىء منه فى الواقع وقد دلت الاحاديث الصحيحة على نفى الاسلام عنه فى غير موضع وسيجزى على عمله هذا أشد الجزاء ويعاقب عليه أسوأ العقاب فى يوم يؤخذ فيه المجرمون بالنواصى ويساقون الى نار وقودها الناس والحجارة أما الرياء بالفرائض الدينية للحصول على لذة مباحة كأن يحتال باداء الفرائض على التزوج بامرأة أو الحصول على مال بطريق الهبة ونحوها. ولولا هذا الغرض ما قام بادائها فانه وان كان اهون من الاول ولكنه قبيح جد القبح وفساد لايعدله فساد لانه شرك بالله تعالى فى هذه العبادة بل هو فى الحقيقة عبادة للشهوة لا لله تعالى . ففاعله وان كان مقرا بالتوحيد الا أنه سيعذب على ذلك عذابين عذاب على ترك الغرض وعذاب على فعله رياء ونفاقا. ولو كان عنده مثقال ذرة من الادب والحياء لخجل من خالقه الذى لاينبغى له أن يعبد سواه او يشرك معه فى عبادته شيئا ولكنه بدلا من ذلك قد جعل عبادته وسيلة لاقتناص الملاذ والحصول على الشهوات وفى ذلك يقول الله تعالى (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون) ومما لاشك فيه أن غير الصلاة من الفرائض الدينية مثل الصلاة فى ذلك فمن فعل شيئا منها رياء كان له الويل عند الله تعالى

وهناك فريق من الناس يؤدى الفرائض للغرضين معا فهو يقصد بها الثواب والقيام بواجبه ويقصد كسب قلوب الناس ليسخرهم فى أغراضه وشهواته وهذا وإن كان أقل من الأول قبحا إلا أنه شر وفساد خصوصا إذا كان الغرض الذى يقصده محرما فان عقابه يكون كعقاب الاول تماما أما إن كان ذلك الغرض مباحا فان العقاب فيه يكون قاصرا على نفس الرياء لأن عبادة الله تعالى يجب ان تكون خالصة له لاينبغى أن يخالطها غرض من الاغراض المتعلقة بالشهوات قال تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا)

﴿ القسم الثالث ﴾ المراؤون بالنوافل وأوصاف العبادة كأن يؤدى الواحد من هؤلاء النوافل فى حضرة الناس ويتركها إذا كان وحده أو يجيد أداء الفرض فى حضور الناس ولا يجيده إذا كان وحده كأن يشرع فى الصلاة منفردا فاذا مارأى الناس أطال فيها وأظهر الخشوع والخضوع والرياء فى ذلك كالرياء فى غيره فان كان يقصد به الحصول على شهوة محرمة أو الوصول إلى جاه يظلم به أحدا من عباد الله تعالى كان اثمه عند الله عظيما وعقابه اليما أما إن كان يقصد به الحصول على شهوة مباحة فهو وإن كان أقل من الاول عقابا ولكنه قبيح مذموم لما علمت أن عبادة الله يجب ان تكون خالصة له فمن يؤديها لغرض من الاغراض فقد أشرك فيها ذلك الغرض مع الله تعالى ومن يفعل ذلك فهو غبى ممقوت يستحق الذم والعقاب لانه قد استهان بعبادة الله تعالى وجعلها وسيلة للحصول على الاغراض الدنيوية والشهوات الجسمانية مع ان النوافل مثلا لم تشرع الا للحصول على الثواب الكثير والدرجات الرفيعه عند الله تعالى فانقلبت عليه شرآ ووبالا بفعلها رياء وأصبح يستحق عليها عقابا وذلك فساد وخلل عظيم

﴿ القسم الرابع ﴾ المتحدثون بأعمالهم بعد تمامها كأن يقول الواحد منهم صليت كذا وصمت كذا وفعلت كذا من الخير وهذا وإن كان لا يحبط العمل الذى تم على وجه صحيح إلا أنه ينظر الى قصده من التحدث بذلك فان كان فسادا كان محرما وان كان فرارا من ذم الناس ورغبة فى مدحهم بدون أن يقصد منها الوصول الى غرض غير ذلك كان ملوما من جهة واحدة وهى أنه قصد رآء الناس بطاعة الله وقد علمت ان ذلك لايجوز

﴿ القسم الخامس ﴾ المراؤون بالهيئة والزى فترى الواحد من هؤلاء يتكلف العمل على تحول بدنه واصفرار وجهه كى يظهر بمظهر العابد الذى أضناه السهر وأنحله الصوم ومنهم من يتكلف خفض صوته أو يطرق رأسه أو يغمض عينه أو يترك شعره شعثا أو يطيل لحيته أو يلبس اثوابا تختلف عن اثواب أهله وعشيرته ليلفت اليه انظار الناس او يجعل له منها شكلا خاصا يختلف عن عادات الناس الذين يعيش فى بيئتهم مادام ذلك يؤثر على نفوسهم ويجعلهم يعتقدون فيه العبادة والزهد وهذا النوع من الرياء خفيف جد السخف لانه لايتأثر به إلا ضعاف العقول صغار النفوس كما يتأثرون بالنصابين والمحتالين الذين يخادعون الناس ليغتصبوا أموالهم وأعراضهم بالخيالات الكاذبة والدعاوى الباطله وكل هؤلاء من شرار المفسدين الذين يجب على الناس أن يحذروا شرهم ويمقتوهم ولا يبالوا بهم ولا بحيلهم وأزيائهم ان كانوا يعقلون

وبعد فاعلم أن النية عليها مدار الثواب والعقاب كما علمت مما مضى فاذا كان المرء يتحدث بعمله الصالح أو يظهره بين الناس ليكون قدوة صالحة لهم ومثالا حسنا يقتدون به لايريد بذلك الا وجه الله تعالى وابتغاء مرضاته بنشر الفضيلة واحيائها بين الناس من غير أن ينظر الى مدحهم وذمهم فلا يثنيه عن عمل الصالحات شئ من ذلك . ولايغريه عليه رضاء أحد من الناس على أن يكون يقظا لايجعل للغرور والعجب الى نفسه سبيلا فان عمله على ذلك الوجه لايكون داخلا فى باب الرياء بل يكون مطلوبا وقد يكون واجبا ان تأكد من اقتداء الناس به فى عمله الصالح ويكون له على ذلك أحسن الجزاء وأفضل الأجر . وكذلك تنظر الشريعة الاسلامية الكريمة الى جميع الأعمال فان ترتب على العمل فساد كان مذموما سواء أكان فى ذاته فرضا أم نفلا وان ترتب عليه صلاح كان ممدوحا لجميع أحكامها وقضاياها مبنية على جلب المصلحة ودرء المفسدة عن المجتمع الانسانى وكلها ترمى الى تهذيب النفوس وتطهير القلوب وتربية النوع الانسانى أحسن تربية وتأديبه أفضل الأدب ويكفى فى ذلك قوله تعالى (ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) فعلى العاقل أن ينزه نفسه عن الرياء وأن يطرح الناس جانبا فلا يبالى بمدحهم ولا يخشى من ذمهم وعليه دائما أن يزن ما يحصل عليه من ثقتهم به وماينالله من وراء ذلك من اللذات الزائلة. بما يحصل عليه بالعمل الخالص لله تعالى من نعيم خالد وسعادة دائمة فانه ان فعل ذلك هانت عليه لذات الحياة الدنيا وسهل عليه أمر شهواتها وكان فى كل أعماله من فرائض وسنن مخلصا لله تعالى الذى لا يستحق العبادة الا هو وهو سبحانه لا يضيع عنده مثقال ذرة من العمل الصالح وسيجزى العاملين جنات النعيم

الباب الثاني

فى الغضب

تعريفه

هو قوة طبيعية تثور من باطن الانسان فتحمله على الدفاع عما يحبه من الأغراض وتدفعه الى البطش بكل مايؤذيه فاذا اعتدى عليه معتد أو حيل بينه وبين أغراضه تثور تلك القوة فيغلى دمه وينتشر فى العروق ويرتفع الى اعالى البدن فيظهر أثره على ظاهر الوجه والعينين فمعنى الغضب غليان دم القلب لدفع المؤذيات قبل وقوعها او الانتقام والتشفى بعد وقوعها على أن الغضب بديهى معروف فى الانسان والحيوان وأثره محسوس فلا يحتاج الى تعريف